عين المدينة

نبنيــها معاً

www.3ayn-almadina.com
facebook.com/3aynAlmadina

في المدينة...
- حسبة الميادين.. تتراجع ص4
- أثمانٌ بخسةٌ للفسيفساء السورية ص5
- لماذا لا ينشقّ الرياضيون؟ ص8
- ليس لدى تنظيم الدولة خبراء ص9
- في الحاجة إلى قضاء ص10+11
- مسقط رأس الأسد ص15
- انتظار الموت في حلب ص16+17
- صورٌ من أرض الخلافة ص19

عين المدينة | العدد (35) | 16 تشرين الأول 2014

مجلة نصف شهرية مستقلة

ريف دير الزور الشرقي - عدسة سقراط

ماذا نـريد من العـالم؟ ومـا الـذي يـريده منا؟!

يتعاظم إحساس السوريّ بأن مصيره لم يعد في يده. فمن جهةٍ، ها هي طائرات قوى التحالف تفعل ما تشاء في سماء بلاده، لصالح برنامجها الخاصّ الذي تتشارك فيه قوىً عظمى مع دولٍ عربيةٍ صغيرةٍ لم يكن يأبه لها في حقيقة الأمر. ومن جهةٍ أخرى، تتقاسم هذه الدول، وسواها، مقاعدها في تشكيل الحكومة المؤقتة للثورة، فلا يعيّن وزيرٌ إلا بتوافق محاور إقليمية، لكلٍّ منها حصّته المحفوظة من النفوذ وكتلته المعتبرة في الائتلاف. ومن جهةٍ ثالثةٍ، أقرب إلى الأرض، يتصارع الأمير التونسيّ والشرعيّ السعوديّ مع رجال المعمّم العراقيّ ومرتزقةٍ من الأفغان، هم أحدث طبعات النظام للحفاظ على «السيادة الوطنية» التي أبى مشاركتها مع أبناء بلده.

يستعرض السوريّ حصيلة أربع سنواتٍ قاسياتٍ، تبعنَ أربعين عجافاً. يتذكر صور الأحبة الذين رحلوا والديار التي خربت، قادة العالم وهم يخطبون والشريط الإخباريّ يمرّ تحت صورهم الأنيقة، تصريحاتٍ وكلماتٍ ووعوداً، رؤساء ووزراء خارجيةٍ ومعارضين ومحللين، داعمين ومنظماتٍ إغاثيةٍ وصحيةٍ ومجالس محلية، قادةً ومقاتلين، ألويةً وكتائب، عسكريين منشقّين وجهاديين ملتحين. الكلّ قد مضى وأسلمه للقفر والريح.

فما الذي عليه فعله في هذا الكرنفال المدوّخ؟ سوى أن يسلم نفسه للفضاء الطلق، مع قليلٍ من الصحبة والدفء، وكأسٍ من الشاي، وابتسامةٍ عريضة.

سيمضون جميعاً. وسوف نبقى!

كوباني محور الحراك السياسيّ الخارجيّ... والائتلاف على يسار الحدث

هيئة التحرير

اختصرت خارجيات الدول الفاعلة في الشأن السوريّ مجمل ما يجري على الأرض السورية من تطوراتٍ بمدينة عين العرب-كوباني شرق حلب، والتي تقطنها غالبيةٌ كردية، وتخضع لحصار من قبل مقاتلي تنظيم "الدولة الإسلاميّة". وبدت مجمل الأحداث في المناطق الأخرى هامشيةً، بعد أن أصبحت كوباني قضيةً ذات عدّة أبعادٍ، محلياً وإقليمياً ودولياً. إضافة إلى البعد الأهم، وهو اعتبار تقدّم مقاتلي التنظيم نحوها وسيطرته على أجزاءٍ كبيرةٍ منها بمثابة فشلٍ لهجمات التحالف الدوليّ على التنظيم، في المناطق الخاضعة لسيطرته شرق وشمال شرق الأرض السورية، دون أن تؤثر هذه الهجمات على حركة مقاتليه وخطوط إمداده إلا بشكلٍ محدودٍ لم يضعف من سيطرته على الأرض أو يخفّض من وتيرة عملياته العسكرية.

الإدارة الأمريكية في حربها الجديدة

حاولت الإدارة الأمريكية، خلال الأيام السابقة، الدفاع عن العملية العسكرية التي تقودها في سوريا لضرب مواقع تنظيم الدولة الإسلامية فيها. كما حاولت حشد أوسع دعمٍ دوليٍّ لهذه الضربات. وتجلى ذلك في لقاءٍ بين وزير الخارجية الأمريكيّ، جون كيري، ووزير الخارجية الروسيّ، سيرجي لافروف، في باريس، توصّل فيه الطرفان إلى الاتفاق على تبادل المعلومات الاستخباراتية بخصوص مواقع التنظيم في سوريا وتحرّكاته. وهو ما اعتبره محللون سياسيون إشارةً بسيطةً من القادة الروس إلى تعديل موقف بلادهم من ضربات التحالف.

وحاولت الادارة الأمريكية إظهار نتائج إيجابيةٍ يحققها التحالف من خلال هجماته الجوّية على مواقع التنظيم. وأهم تلك النتائج، بحسب كيري، كان إعاقة تقدم التنظيم نحو عين العرب-كوباني. وهو ما أثار انتقاد مراقبين لعدم قدرة التحالف على إلحاق هزيمةٍ واضحةٍ بالتنظيم، بدحر قواته المهاجمة التي تبدي إصراراً كبيراً على السيطرة على هذه المدينة ذات الأهمية الاستراتيجية بتقدير كثيرٍ من المراقبين، لأنها تحقق اتصال سيطرته على شريطٍ حدوديٍّ طويل.

نازحو كوباني على الحدود التركية

لكن التسويق لنجاح غارات التحالف الدوليّ في تحقيق أهدافها لم يمنع الرئيس باراك أوباما من التعبير عن قلقه تجاه الوضع في كوباني من جهة، ومن الإعلان عن أن العملية العسكرية ستطول في سوريا.

تركيا القوة المركزية

لعب العامل الجغرافيّ والقوميّ الدور الأهم في مركزية دور تركيا خلال الأيام السابقة في ما يخصّ قضية عين العرب-كوباني. وقد توجّهت الأنظار إلى البرلمان التركّي الذي فوّض الجيش بالتدخل خارج الحدود دون أن يتمّ اتخاذ أية خطواتٍ عمليةٍ حتى الآن، كما توجّهت الأنظار إلى الموقف السياسيّ التركيّ تجاه هذه القضية أمام تظاهراتٍ وأحداث شغب شهدتها مدنٌ تركيةٌ عدّة احتجاجاً على التلكؤ الحكوميّ -بحسب المحتجين- في مساعدة المقاتلين الأكراد على صدّ هجمات التنظيم، بتسهيل دخول مقاتلين وأسلحةٍ وذخائر لدعم المجموعات الكردية المدافعة عن المدينة.

إلا أن مركزية الموقف التركيّ، والمحادثات التي قيل إنها أجريت بين أمريكا وتركيا، لم تؤثر حتى الآن في المشهد الميدانيّ، سوى في ازدياد حملات النظام على المناطق المحرّرة، خاصةً في ريف دمشق وحلب، استغلالاً لانشغال الرأي العام الدوليّ بأحداث عين العرب.

الائتلاف بعيداً عن الأحداث

أمام مسرح أحداثٍ معقّدٍ وشديد التسارع والتغيّرات، ظهر الائتلاف الوطنيّ السوريّ على الهامش، منشغلاً بصراع مكوّناته على مواقع السيطرة والنفوذ. وجاء انتخاب أحمد طعمة لرئاسة الحكومة المؤقتة، والطريقة التي أجري بها هذا الانتخاب، ليلحق أضراراً إضافيةً بمصلحة الثورة السورية ككلّ، وليؤكد كلّ ما قيل عن انعدام المسؤولية الأخلاقية والوطنية لدى "قادة" المعارضة السورية، المشغولين بتمثيل مصالح الدول الإقليمية المشغّلة لهم والولاء لها، دون أيّ اهتمام جادٍّ بمعاناة الشعب السوريّ وآلامه. واقتصر الأداء السياسيّ لقادة المعارضة على تصريحاتٍ صحفيةٍ، تُطلق بين حين وآخر، تطالب التحالف الدوليّ بتوسيع قائمة الأهداف لتشمل مواقع لقوّات الأسد، ومطالباتٍ عامةٍ بدعم الجيش الحرّ. في حين يكمن الهمّ الحقيقيّ لهؤلاء في إلحاق أكبر قدرٍ من الهزائم في صفوف خصومهم داخل المعارضة، وتمتين علاقاتهم مع دول الإقليم المتصارعة هي الأخرى. أعاد الائتلاف انتخاب طعمة، بعد أن عزله قبل أشهرٍ قليلة، وطويت فضائح كبرى ليست قضية اللقاحات القاتلة، التي حقنت بها وحدة تنسيق الدعم أطفال إدلب، إلا واحدةً منها.

معارك في ريف دمشق وحلب ودرعا.. ولا تغيّر في خرائط السيطرة

هيئة التحرير

كحضورها على طاولات الساسة وغياب باقي المناطق عن الواجهة، كانت الأخبار الميدانية لمدينة عين العرب (كوباني) الأكثر حضوراً في وسائل الاعلام. بين تقدّم لمقاتلي تنظيم "الدولة الإسلامية" وسيطرتهم على أجزاء منها، ثم استعادة المسلحين الأكراد لتلك الأجزاء، واستهداف طيران التحالف خطوط إمدادٍ وتعزيزاتٍ للتنظيم تتجه نحوها. ليبقى الوضع الميداني على حاله بين تقدم بسيطٍ للتنظيم وتشديدٍ للحصار على المدينة وصمودٍ للمجموعات الكردية المدافعة عنها، مع تصاعد المطالبات للحكومة التركية بالتدخل، وخاصةً بعد تأكد عجز الغارات الجوية لوحدها عن تغيير الأوضاع أو مجريات المعارك على الأرض، في عين العرب وفي جبهات قتالٍ أخرى للتنظيم.

القلمون.. ساحة المعارك الأكبر

شهدت مناطق القلمون معارك عنيفةً بين مقاتلي الجيش الحرّ وجبهة النصرة من طرف، وقوّات الأسد وميليشيا حزب الله من طرفٍ آخر، والذي نفّذ انسحابات متتالية من مواقع تمركزٍ سابقةٍ له في الجزء المحاذي للحدود اللبنانية في جبال القلمون. وبحسب أنباء مؤكدةٍ مني الحزب بخسائر متلاحقةٍ في صفوف مقاتليه، وسط دعواتٍ من داخل مجتمع الحزب للانسحاب من سوريا. وجاء حديث نعيم قاسم، نائب الأمين العام للحزب، حول التنازلات المؤلمة الواجب على الجميع تقديمها وعن الحلّ السياسيّ، كبدايةٍ مراجعةٍ يمكن أن يقوم بها الحزب لدوره العسكريّ في "الأزمة السورية".

درعا... لا تقدّم للنظام رغم القصف

ركّزت قوّات النظام قصفها على عدّة مناطق من محافظة درعا الجنوبية، في محاولةٍ للسيطرة على المناطق التي حرّرها الثوار مؤخراً، وخاصةً في بلدات جاسم وبصرى الشام، إضافةً إلى مركز المدينة. إلا أن ذلك لم يؤدِّ إلى التقدم المنشود، بل على العكس تماماً أحرز الجيش الحرّ تقدماً نوعياً حين تمكن من تحرير تلّ الحارة بالكامل، في ريف درعا الغربيّ، بالإضافة إلى تلّ الأحمر الصغير، والمفرزة الأمنية جنوب مدينة الحارة، وحاجز الجديرة شرق الحارة. وتحوز تلك النقاط أهميةً كبيرةً لأنها أعلى المناطق الجبلية في المحافظة، إذ يبلغ ارتفاع تلّ الحارة 1075 م عن سطح البحر، ويشرف على محافظات درعا والقنيطرة وريف دمشق، ويعدّ أهم مراكز الاستطلاع في درعا.

النظام يصعّد في محيط حلب

حاولت قوّات النظام تصعيد عملياتها في محيط المناطق المحرّرة شرق حلب، مستخدمةً سلاح الجوّ والبراميل المتفجرة بشكلٍ كثيفٍ دون تقدّم برّيٍّ يذكر، باستثناء السيطرة على مُحيط حندرات. وغير بعيدٍ عن حلب فشلت العملية العسكرية للتوسع في محيط وادي الضيف في إدلب بوضوح، بعد وعودٍ قدّمها العقيد سهيل الحسن بأنه سيحقّق تقدماً في القرى المحيطة بالمنطقة العسكرية الأهمّ في المحافظة.

ومن جانبها، نفّذت كتائب الجيش الحرّ عمليةً نوعيةً بتفجير حاجز الدحروج في تجمع الحامدية بريف إدلب، والذي يعدّ من نقاط التمركز الهامة للنظام داخل التجمّع.

جوبر... الجبهة الأكثر سخونة

تحوّلت أكثر من 80 بالمئة من مباني حيّ جوبر الدمشقيّ إلى ركام بفعل الهجمات الجوّية المتلاحقة على مدار الساعة لطائرات الأسد على الحيّ تمهيدا لاقتحامه، في حين أبدى مقاتلو الحرّ المدافعين عنه مقاومةً شرسةً لم تمكّن قوّات الأسد من تحقيق غايتها، مدركين الأهمية الكبرى لـ"جوبر" في الدفاع عن الغوطة الشرقية كلها.

زهر الدين يستعرض في دير الزور

في عمليةٍ مفاجئةٍ، اقتحمت مجموعاتٌ من الحرس الجمهوريّ، وعصابات ما يسمّى بالدفاع الوطنيّ، الطرف الشرقيّ من الجزيرة النهرية المسماة "حويجة صكر"، عبوراً للفرع الصغير لنهر الفرات، وانطلاقاً من قرية الجفرة الخاضعة لسيطرة النظام، شرقيّ مدينة دير الزور. وخلال ساعاتٍ تمكّنت كتائب الجيش الحرّ -التي لم تقاتل تنظيم الدولة سابقاً واستمرّت في محاربة النظام- من صدّ الهجوم وألحقت خسائر فادحةً في صفوف قوّات الأسد. وفي الوقت الذي تناقل "الشبيحة" مقطع فيديو يظهر العميد عصام زهر الدين -قائد القوّات الأسدية في دير الزور- برفقة مجموعةٍ من أتباعه على طريقٍ ترابيٍّ في "الحويجة"، كانت سياراتٌ تتبع للتنظيم، تحمل جثثاً مقطوعة الرؤوس لجنود النظام، تتجوّل داخل الأحياء المحرّرة في المدينة.

اشتباكات الحر مع قوات النظام بجوبر

"حسبة" الميادين تتراجع أمام غارات التحالف

ولصوص الدرّاجات النارية في طليعة المستفيدين

فراس العمري

مع بدء غارات التحالف أخذت سيارات الحسبة، التي اعتادها سكان مدينة الميادين، بالاختفاء. ولم تعد تُسمع أصوات فراملها حين تتوقف فجأةً للاشتباه بوقوع مخالفةٍ في الشارع، من قبيل ارتخاء نقابٍ أو اشتعال سيجارة، قبل أن تعاود الانطلاق مسرعةً للبحث عن صيدٍ آخر، أو الالتفاف بمهارةٍ بعد القبض على أحدهم متلبساً بتهمةٍ ما. ولم يعد شرطيو دوريات الحسبة يوزّعون نظراتهم الغاضبة من وراء القناع، فقد تغيّر شيءٌ ما -ليس كبيراً بالطبع، لكنه واضحٌ- في سلطتهم. والدليل هو تخلخل حالة الأمن، التي فُرضت بالقوّة والإرهاب، وتسجيل بعض حوادث السرقة والسطو المسلح في المدينة.

قبل سيطرة تنظيم الدولة على الميادين، عاشت المدينة حالةً ملحوظةً من حالات الانفلات الأمنيّ. وسُجّلت عشرات جرائم القتل وحوادث السطو والسرقة، إضافةً إلى شجاراتٍ يوميةٍ في الأسواق المكتظة، وباستخدام كافة أنواع الأسلحة الخفيفة منها والمتوسطة. وأصبحت رؤية مسلح برشاش، وهو يدخل إلى عيادة طبيبٍ أو إلى مطعم، أمراً شائعاً. وكذلك أن يتسلى بضعة شبّانٍ بإطلاق زخّاتٍ من طلقات الرشاشات المضادة للطيران، دون مناسبةٍ سوى الرغبة في إظهار القوّة، أو تعبيراً عن فرحة المشاركة في عرسٍ! فضلاً عن المواجهات الدائمة بين العوائل المتقاتلة طلباً للثأر والانتقام، والتي أدّت في إحدى المرّات إلى تعطل الحياة في المدينة ليوم كاملٍ تقريباً. ولولا تدخل الهيئة الشرعية يومذاك، وفرضها الأمن بالقوّة وانتزاعها لسلاح الطرفين، لسقط كثيرٌ من الضحايا نتيجة هذا الصراع.

ومع سيطرة التنظيم على المدينة، اختفت مظاهر التسلح كلها ودفعةً واحدة. فلا شيء يلجم طيش البعض سوى القوة والتهديد بها وإنزال العقوبة بالمجرمين. وهذا ما فعله التنظيم الذي يُسجّل له ضبط الأمن من هذه الناحية، كما سُجّلت عليه قائمةٌ طويلةٌ من الانتهاكات والجرائم بحقّ أبرياء. تألفت "حسبة" الميادين، بمعظمها، من عناصر من تونس والمغرب، وهم المعروفون بالخشونة والقسوة وفظاظة الطباع بين عناصر التنظيم. وطُعّمت بقلةٍ من السعوديين أو "الجزراويين" الأكثر لطفاً بالمقارنة مع غيرهم. وأضيف إلى هؤلاء المهاجرين عناصر محليّون من بعض أبناء المدينة والقرى التي عُرف سكانها بمهادنة التنظيم. ويأتي الجهاز الأمنيّ الغامض ليشكل رافد رعبٍ إضافيٍّ للسكان، فعادت إلى الأسماع عباراتٌ من عهد نظام الأسد، مثل "الحيطان لها آذان"، و"البلد مليانة مخبرين"، و"امشي جنب الحيط وقول يا ربي الستر". لكن ثقافة الخنوع المستعادة هذه خرقتها طائرات التحالف بغاراتها شبه اليومية، وما رافق ذلك من عمليات إخلاءٍ للمقرّات وعمليات تمويهٍ واختفاءٍ مؤقت. وكان اللصوص أوّل من استثمر هذا الاختراق.

... الفوضى تتنفس

تقلّص عدد الدوريات اليومية، وتقلّص كذلك حضور عناصر التنظيم بين الناس. ولم يعد مرور سيارة الحسبة أمراً مألوفاً لا يثير الانتباه، كما في السابق، بل ارتبط منذ بداية الغارات الجوية بأهدافٍ محدّدةٍ للقبض على أحد المطلوبين، بوشايةٍ -في غالب الأحوال- ممّن يطلق عليهم عناصر التنظيم صفة "المخلصين"، وهو الوصف المهذّب لفصيلة المخبرين وجواسيس السلطات أياً كانت طبيعتها.

وبما أن عدد المخبرين وإمكانياتهم لن يكونا بديلاً عن الحضور المباشر لمشغّليهم، عادت حكايات السرقة والسطو تسمع من جديد. ووقعت حوادث مؤكدةٌ، مثل الهجوم على تاجرٍ أثناء عودته إلى البيت ليلاً، وانتزاع مبلغٍ كبيرٍ كان بحوزته ساعة الهجوم، تحتّ تهديد السلاح. إضافةً إلى سرقات الدراجات النارية، وسيلة النقل المفضّلة بين أهداف اللصوص الذين تنفسوا الصعداء مع سماع هدير طائرات التحالف في سماء الميادين، في جوٍّ من الاستياء العام من تصرّفات عناصر التنظيم الذين تركوا جبهات القتال مع النظام -بحسب ما يقول الأهالي- وتفرّغوا لمطاردة المدخنين وإحكام تغطية وجوه النساء.

يشعر السكان اليوم بالقلق من مستقبلٍ غامضٍ ينتظر مدينتهم، أمام احتمالاتٍ غير مبشّرة؛ بين بقاء التنظيم وما يعنيه ذلك من مواصلة القمع، وبين رحيله وما يخلفه ذلك من فراغٍ يبدو أن مثيري المتاعب، من فوضويين ولصوص، هم الأكثر استعداداً لملئه.

رجال الحسبة هم العين الساهرة في صيانة المجتمع المسلم

من إصدارات التنظيم

أثمانٌ بخسةٌ لكنوز الفسيفساء السورية

جرّافات اللصوص تحطّم لوحاتٍ جداريةً وأرضية

خلدون إبراهيم

عاش فن الفسيفساء أزهى أيامه خلال العصرين اليونانيّ والرومانيّ، في حوض البحر الأبيض المتوسّط، ولا سيّما لتزيين الكنائس. ثم لقي اهتماماً خاصّاً في حقب ازدهار الحضارة الإسلامية، عندما اعتنى الخلفاء والأمراء بالعناصر الجمالية للجوامع والقصور. وفي سورية عثر الباحثون على مجموعات فسيفساءٍ هامةٍ في حمص وتدمر وأفاميا وشهبا ومناطق أخرى. ولهذه المجموعات أهميةٌ تاريخيةٌ كبيرة، لانتسابها إلى مدارس فنية مختلفة، وعنايتها بتصوير موضوعاتٍ متعددة، أسطوريةٍ وإنسانية.

أصاب لوحات الفسيفساء ما أصاب غيرها من الآثار السورية من خراب. ولم يصدر بعدُ أيّ تقريرٍ علميٍّ دقيق يجمل الأضرار التي لحقت بهذه الكنوز المنتشرة في كثيرٍ من مواقع الآثار السورية. وبحسب متابعاتٍ جزئيةٍ يبدو أن عدد اللوحات الناجية من السرقة والتخريب في المناطق المحرّرة عددٌ قليل. وليس الحال أفضل في مناطق سيطرة النظام، فمن مدينة أفاميا الأثرية وحدها تم اقتلاع عشرات اللوحات، بالتواطؤ والشراكة مع ضباطٍ في جيش الأسد.

ويؤكد مهتمّون محليون بالآثار أن مواقع كاملةً تخلو اليوم من أية لوحة فسيفساء، مثل موقع "سورة" المجاور لسدّ البعث في ريف الرقة، والذي طالته يد التخريب قبل سنواتٍ من الثورة، ثم كان الاعتداء الأكبر عليه بعدها. ولا توجد أيّة أرقام تقديريةٍ حول عدد اللوحات المنهوبة، وخاصّةً في حالة اللوحات غير المكتشفة أو غير المسجّلة، في التلال والمواقع التي لم تجر فيها عمليات تنقيبٍ سابقة. ولكن يمكن القول إن الجزء الأكبر من هذه اللوحات قد خرّبت في مواقعها، أثناء عمليات الحفر العشوائية التي تحدث أحياناً باستخدام المعدّات والآليات الثقيلة التي تحطّم الفسيفساء المرسومة على الأرضيات والجدران، وأثناء القلع أيضاً، نظراً لما تحتاجه هذه العملية من خبرةٍ ومهارةٍ يفتقر إليها معظم لصوص الآثار، وخاصةً الجدد منهم.

قصة لوحةٍ بيزنطية

بحسب معلوماتٍ خاصّةٍ اطّلعت عليها "عين المدينة"، تُعرض اللوحة الظاهرة في الصورة المرفقة للبيع في سوق تجارة الآثار السورية. وبحسب المعلومات اقتُلعت هذه اللوحة، المصنوعة من الزجاج والتي تعود إلى الحقبة البيزنطية وبأبعاد (150x80 سم)، من موقعٍ قريبٍ من منبج بريف حلب ثم نقلت إلى دير الزور، على خلاف عادة طريق الآثار السورية المهرّبة، التي تكون المناطق الشمالية محطّتها الأخيرة قبل دخولها الأراضي التركية. غير أن التفسير المنطقيّ لهذه المخالفة -بحسب خبيرٍ بعالم الآثار وتهريبها- هو أن شخصاً ما من تَنظيم "الدولة الإسلامية"، من محافظة دير الزور، علم أثناء وجوده في ريف حلب بأمر اللوحة فكان السبّاق إلى اقتلاعها، بعد أن دفع الخمس لأمرائه في التنظيم -الضريبة التي تحددها قوانين "الدولة" المتعلقة باللقى الأثرية- ثم نقلها إلى قريته ليعرضها للبيع هناك في سوق الآثار المهرّبة. يطلب المستولي الحاليّ مبلغ 70 ألف دولارٍ ثمناً لهذه اللوحة "في مكانها".

وهي صفقةٌ رابحةٌ -بحسب الخبير- في حال نجحت عملية نقلها وتهريبها إلى تركيا، لتباع من جديدٍ بمبلغٍ لا يقلّ عن 200 ألف دولارٍ أمريكيّ.

كيف تقلع لوحة فسيفساء؟

يفضّل تجار اللوحات أن يعاينوا بضاعتهم في الموقع على جدران وأرضيات الأبنية الأثرية، تجنباً لعمليات الغشّ والتزييف المتزايدة في اللوحات المعروضة في السوق. وحرصاً على سلامة اللوحات من الضرر أثناء عمليات القلع يفضّل الكثيرون أن يقوموا باقتلاع اللوحات بأنفسهم. ويمكن تلخيص عملية قلع الفسيفساء التي تنفّذ في الموقع بالخطوات التالية:

- تُطلى اللوحة بطبقةٍ من مادّة لاصقة -الغراء- ثم تُلصق بلوحٍ من الشاش الأبيض.
- بعد جفاف المادة اللاصقة تبدأ عملية اللف ابتداءً من الحافة بما يشبه لفّ السجاد.
- تُحضر طبقةٌ أخرى من الشاش والمادة اللاصقة ثم تبسط اللوحة عليها.
- تُزال الطبقة الأولى من الشاش والغراء باستعمال مادةٍ كيماويةٍ خاصّة، ليظهر وجه اللوحة ملتصقةً ومحمولةً على طبقة الشاش والغراء الثانية، ثم يعاد لفّها من جديدٍ قبل عملية النقل.

ملاحظة من هيئة التحرير:

لدى عرض الصورة المرفقة على الخبير الآثاري السوريّ د. شيخموس علي قال إن هذه اللوحة مزوّرة. بدلالة ألوانها البرّاقة الجديدة، بالإضافة إلى القسم الزخرفيّ لأطراف اللوحة، الذي تضمّن تزييناتٍ نباتيةً وغيرها. فضلاً عن وجوه الأشخاص وعدم تناسب حجومها مقارنةً مع جذوع الأجساد.

أبناء ريف حلب...
أسرى قوانين النظام، ومشتبَهون على حواجزه

ميلاد بهنو

لا زال هناك شبابٌ كثرٌ من أبناء الريف الحلبيّ يراجعون شعب التجنيد في المدينة، من أجل تسيير أمورهم المتعلقة بخدمة العلم. وحسب شهود عيانٍ، تعيث الفوضى بشعبة التجنيد، ووصل الفساد فيها إلى أعلى الدرجات. ومن جهةٍ أخرى، تعيش مناطق حلب التابعة للنظام تحت رحمة الحواجز المنصوبة بين كل حيٍّ وحيّ. ويقوم عناصر هذه الحواجز بمضايقة المارّة، لاسيما وأنّهم أصبحوا يملكون سلطاتٍ مطلقةً فيما يتعلّق بالتعامل مع المدنيّين.

شعبة التجنيد بحلب

في حيّ الفرقان تقع شعبة التجنيد الوسيط في حلب، والتي أصبحت تختصّ بتسيير أمور الشباب العسكريّة، كالسَّوق إلى الخدمة والتأجيل الدراسيّ وتحصيل الأوراق الإداريّة الأخرى. وتشكّلت هذه الشعبة لتسيير أمور أبناء المناطق الريفيّة بحلب منذ أكثر من سنةٍ ونصف، بقرارٍ من شعبة التجنيد العامّ في دمشق، بغية تخفيف ضغط مراجعي العاصمة. ويقوم على إدارة الشعبة عددٌ من الضبّاط والعناصر ممن كانوا يديرون شعب التجنيد في الريف، ومعظمهم هرب من تلك المناطق عندما دخل إليها الجيش الحرّ، وطلب نقل وظيفته إلى حلب.

يملك صالح مركزاً للخدمات الجامعيّة والإداريّة في مدينة منبج بريف حلب. وقد روى لـ"عين المدينة" قصّة عمله قائلاً: "البعض من الشباب هنا لا يجرؤون على الذهاب إلى حلب، خوفاً من القصف أو الاعتقال على الحواجز، لذا يسجّلون لديّ وأنا بدوري أذهب بالأوراق إلى حلب من أجل إنجازها". ويضيف: "في حلب أعرف رقيباً يعمل في شعبة التجنيد، يقوم بخدمتي مقابل مبلغ ماديٍّ على كلّ دفتر خدمةٍ أسلّمه إيّاه. كان يقول لي: أنا لا أرضى بأقلّ من 20 ألف ليرةٍ كلّ يوم، ولا أعمل إلا بتسجيل تأجيلات الخدمة التي يقدّمها الطلبة".

ورفض صالح البوح بتفاصيل أكثر، خوفاً من أن يخسر عمله، لكنه قال: "نستطيع تأجير الدفاتر للأشخاص الذين لا يحملون مصدّقة تأجيل، اعتماداً على العلاقات الخاصّة بالعاملين في التجنيد".

حواجز داخل المدن

تتوزّع الكثير من الحواجز داخل مناطق النظام بحلب، وتدقّق على البطاقات الشخصيّة للطلبة. ويشرف على هذه الحواجز عناصر اللجان الشعبيّة، ومعظمهم فلسطينيّو الأصل من مخيّم النيرب.

ولا يوجد مكانٌ ثابتٌ لهذه الحواجز، فهي تتنقّل كلّ فترةٍ من حارةٍ إلى أخرى. ويعاني معظم الطلبة في حلب من مضايقة هذه الحواجز، إذ يقول علي، وهو طالب بكالوريا تقدّم لامتحاناته في حلب: "استأجرتُ منزلاً، بالاشتراك مع رفاقي، في حيّ الميريديان القريب من الجامعة، من أجل تقديم امتحان البكالوريا. وكان هناك حاجزٌ يبعد نحو 50 متراً عن منزلنا. العناصر على الحاجز كانوا يعلّقون علينا بسخريةٍ كلما مررنا من هناك".

ويضيف بسّام، وهو شابٌّ من مدينة حلب: "أكثر الشباب الذين يعتقلهم الأمن أو اللجان الشعبيّة هم من أبناء الأرياف، ويقومون باستغلال جهلهم وعدم معرفتهم بطبيعة التعامل في حلب. هؤلاء الشبيّحة يجب التعامل معهم دون خجلٍ وخوف، فهم ينتظرون أن يظهر الجبن على وجه من يقف على حاجزهم من أجل التعدّي عليه. حدثت على الحواجز داخل حلب حالات "تشليحٍ" كثيرةٌ من اللجان الشعبيّة".

أكثر الحواجز الداخليّة التي تضايق المدنيين، وبالأخصّ الطلبة، هما حاجز الخالدية، الذي يدقّق كثيراً على السيّارات المارّة، وحاجز شفا الموجود بجانب الصيدلية التي تحمل هذا الاسم بحيّ حلب الجديدة. يقول بسّام: "يعدّ هذا الحاجز أكبر الحواجز العسكريّة داخل حلب النظام. ويقوم بتفييش أسماء المارّين عبره، وبالأخصّ من يبدو على شكله أنّه من ريف حلب. أمّا الحواجز الأخرى فمعظم العناصر الموجودين عليها يقومون بمضايقة الفتيات اللواتي يجتزن الحاجز".

الجدير بالذكر أنّه تمّ اعتقال العديد من الطلبة القادمين من الريف، لأسبابٍ منها عدم حمل دفتر خدمة العلم، أو عدم وجود ختم التأجيل الدراسيّ، أو بسبب بطاقةٍ شخصيةٍ مكسورة. وإلى الآن يتخوّف الكثير من أبناء الريف من الذهاب إلى حلب، حرصاً على حياتهم وتجنباً للاعتقال والإهانة.

بين طائرات الأسد وإهمال المعارضة يصرّ أطفال جبل الزاوية على التعلّم

مريم هنداوي

في بلدة إحسم في جبل الزاوية، لا يبدو أن العملية التعليمية تسير بشكلٍ جيدٍ مع بداية العام الدراسيّ الجديد، كما هو الحال في كل القرى والبلدات والمدن المحرّرة.

لا يحبّ سكان إحسم التمييز بين الحكومة المؤقتة والائتلاف. فهما كيانٌ واحدٌ يُفترض فيه، وفق اعتبار السكان، أن يكون جهةً راعيةً ومسؤولةً عن تقديم الحلول لمشكلاتٍ كثيرةٍ تعاني منها البلدة وما يتبع لها من قرى. ويُفترض فيها أيضاً أن تحاول فعل شيءٍ، ولو من باب رفع العتب، كما يقول الناس هنا. أيّ شيءٍ، ولو تشغيل مدرسةٍ أو دفع رواتب للمعلمين. لكن فرضيات أهالي إحسم في غير محلها، فاتهام ثنائي الحكومة المؤقتة والائتلاف بالفساد والعجز واللامبالاة صار أمراً بديهياً، مثل اتهام نظام الأسد بالوحشية وارتكاب الجرائم.

قصّة رأفت

نجح رأفت في امتحان الثانوية العامة الذي أجرته وزارة التربية التابعة للحكومة المؤقتة. وكان الأوّل على محافظة إدلب، مما أهّله للفوز بالمنحة الدراسية التي قدّمتها بعض الجامعات الفرنسية للناجحين الأوائل في الامتحان المذكور، وهو ما أكّده موظفو الوزارة في مدينة غازي عنتاب التركية. تقدّم رأفت بكلّ ما يلزم من أوراق ووثائق مطلوبة، وعاد إلى بلدته بانتظار إبلاغه بموعد السفر. يقول: "انتظرت موعد السفر لأشهرٍ طويلةٍ لأكتشف أن طالباً آخر ذا واسطةٍ أخذ فرصتي، وهو الآن في فرنسا". لم يستطع رأفت أن يحصل على مقعدٍ في الجامعة، لكنه حصل على بندقية. وتحوّل من طالبٍ يحلم بالجامعة الفرنسية إلى مقاتلٍ يتمنى أن ينجو بعد كلّ معركة.

بمرارةٍ يتساءل كثيرون من سكان إحسم: هل الائتلاف والحكومة نسخةٌ طبق الأصل عن النظام أم أنهما أسوأ منه؟ ويصرّ الحاج محسن، وهو ناقدٌ لاذعٌ، على تسجيل مثلٍ شعبيّ: "طلعنا من تحت الدلف لتحت المزراب".

مغامرة الذهاب إلى المدرسة

شكّلت مدارس جبل الزاوية هدفاً مفضّلاً لطائرات الأسد، مما دفع بكثيرٍ من الآباء والأمهات إلى التوقف عن إرسال أبنائهم إلى المدارس. لكن بقاءهم في المنزل، وفوات فصلٍ دراسيٍّ وراء آخر، بلا موعدٍ مرتقبٍ لخلاصٍ قريبٍ أو لزوال الخطر؛ دفع ببعض الأهالي إلى تجاهل تهديد الطائرات، والمغامرة بإرسال الأطفال إلى المدرسة. تقول أم عدنان: "أبوسه كلّ يوم قبل ما يروح عالمدرسة. بطّلت دايقه بشي لأني ما عدت أعرف إذا راح عالمدرسة بيرجع وإلا لأ". وتضيف بأنها لا تستطيع تحمّل رؤية ابنها أمياً وجاهلاً، ولا تستطيع أن تكون معلمةً له، فهي بالكاد تقرأ وتكتب. تتذكّر أم عدنان بألمٍ مقتل خمسة أطفالٍ وأربعة معلمين في قريةٍ مجاورة، وتحمد الله أن هجمات الطائرات على مدارس البلدة صادفت أيام عطلٍ أو أوقاتاً خارج الدوام. وتبدو الطفلة ريماً أوفر حظاً من عدنان، فأمها خريجة لغةٍ عربية، وتستطيع أن تكون معلمةً لها. وتشير الأم إلى جانبٍ آخر من مشكلة التعليم في إحسم، وهي قلّة الخبرة لدى المعلمين الجدد، أو من يُسمّون معلّمي "الوكالة" المؤقتون، ومعظمهم حملة شهاداتٍ ثانويةٍ فقط، لكنهم عُيّنوا في الشواغر التي خلّفتها عمليات فصل المعلمين وقطع رواتبهم من قبل وزارة تربية النظام، بسبب تأييدهم للثورة. المعلمة فتحية، وبعد ثلاثين عاماً في مهنة التعليم، كانت واحدةً من ضحايا الفصل: "نصّ عمري قضيته بالمدرسة. كانت بيتي الثاني، واليوم ما فيني أتحمّل سيرتها"؛ تتألم فتحية وهي تشرح تعلّقها العميق بعملها. وتحاول دعاء، وهي معلمةٌ شابةٌ، التخفيف عن فتحية بتذكيرها بالخراب الذي لحق بهذه المهنة: "لا تحزني، ما بقى أي نكهة للتدريس". وتعدّد دعاء عوائق ومنغّصاتٍ كثيرةً أهمّها رحلة أوّل كل شهرٍ إلى مناطق النظام لاستلام الراتب وما يرافق ذلك من مخاطر، ثم ندرة الكتب، والفوضى، وقلة التزام الطلاب بالدوام.

طلاب مدرسة ابتدائية في إحسم

في الماضي كانت في بلدة إحسم 8 مدارس للمراحل التعليمية الثلاث، وللتعليم النسويّ والمهنيّ كذلك. تعمل منها اليوم 4 مدارس فقط. وتقلّص عدد الطلاب من 1000 طالبٍ قبل الثورة إلى أقلّ من 400 اليوم.

لماذا لا ينشقّ الرياضيّون؟
الراتب الشهريّ والتدريب والإقامة هي الأسباب

أحمد صالح

لمّا فرضت تحوّلات الثورة السورية، على العسكريين والمسؤولين الكبار ومنتسبي الأجهزة الأمنية، الانشقاق وإلا اعتبروا شركاء في ممارسات النظام؛ ظهرت أصواتٌ من صفّ الثوار تطالب بانشقاق موظّفين وفنانين ونجوم رياضةٍ، بل وتطالب أيضاً كلّ من يسكن في المناطق الخاضعة لسيطرة النظام بالخروج منها، دون تحديدٍ دقيقٍ لمفهوم الانشقاق، ودون تهيئة بيئةٍ بديلةٍ يجد المنشقّ دوراً له فيها.

حرصت أجهزة الأمن على إظهار الرياضيين ضمن القطاعات التي تسيطر عليها. فعملت على حشرهم في مسيرات تأييد النظام التي تخرج كلما لزم الأمر، واستخدمت مبدأ الترهيب بالاعتقال أو الفصل من الوظيفة، التي طالما اعتبرت "مكرمةً" من مكارم النظام على الرياضيين، ودليلاً من دلائل رعايته لهم.

ولكن، في الغالب، يتخذ الرياضيون موقفاً أقرب إلى معارضة النظام، رغم أنهم مجبرون على العيش تحت سلطانه، والمشاركة في المنافسة الرياضية باسمه، أو باسم سوريا التي يمثلها هو، ويرفعون العلم الذي يرفعه. فاللجنة الأولمبية الدولية لا تزال تعترف بالاتحاد الرياضيّ العامّ كممثلٍ وحيدٍ للرياضة السورية في البطولات الدولية. وبحسب ما يقول مصارعٌ، طلب إخفاء هويته، فإن لهذه المشاركة باسم النظام مبرّراتٌ موضوعية: "الرياضيّ المحترف لا يستطيع التوقف عن التدريب، فأيّ خللٍ في برنامج تدريبه يؤدّي إلى تراجعٍ كبيرٍ في أدائه، إضافةً إلى أنه لا يتقن أيةً مهنة، ولم يكمل تعليمه في معظم الحالات، فقد استولت الرياضة على كلّ حياته. وليس له مكانٌ إلا بجانب النظام، الذي يوفّر له الإقامة والتدريب والطعام".

ولم تكفِ بعض الحالات الفردية لانشقاق بعض نجوم الرياضة لتشكيل ظاهرةٍ في مسار الثورة السورية ككلّ. ورغم الدور الكبير والرمزية العالية اللتين حققهما حارس منتخب شباب سوريا بكرة القدم، عبد الباسط الساروت، وغيره من نجوم الرياضة، إلا أن هذا لم يشجّع معظم الرياضيين على إعلان مواقفهم الحقيقية من الثورة. ويتساءل كثيرٌ منهم عن جدوى هذا الإعلان في وقتٍ لم يعد فيه لانشقاق أحدٍ من خارج النواة الحاكمة للسلطة الأسدية أية فائدة؟ ويستعرض الرياضيون كذلك قائمة هموم ومظالم خاصّةٍ بهم، تبدأ بإهمال السلطة لهم وتنتهي بالتمييز بينهم على أساس الولاء والانتماء الطائفيّ. وهي برأيهم أدلةٌ قاطعةٌ على بداهة معارضتهم للنظام، ولكن لا حول لهم ولا قوّة في تحويل هذه المعارضة النظرية إلى أفعالٍ تخدم الثورة بحقّ.

وفي العموم، تصنّف الرياضة في سوريا في مستوىً متأخرٍ على كافة الصعد، عربياً وقاريّاً وعالمياً، سواءً في الرياضات الفردية أم الجماعية. إذ اقتصر البروز والنجاح على حالاتٍ فرديةٍ تتمتع بموهبةٍ عاليةٍ، لكنها لن تلبث أن تنطفئ بسبب إهمال الاتحاد الرياضيّ وتقصيره في رعايتها وتشجيعها، لتبقى مثالاً يُتداول عند الحديث عن مبرّرات الثورة لدى الرياضيين كشريحةٍ خاصّة. وأتت الحرب التي شنتها قوّات الأسد على المدن الثائرة لتُبعد كثيراً من الرياضيين عن مجالهم، بتوقفهم عن التدريب بسبب تدمير المنشآت الرياضية في هذه المدن، وانشغالهم بالبحث عن سكنٍ آمنٍ أو عملٍ.

ومع انهيار البيئة الرياضية ككلّ في محافظاتٍ عدة، آثر كثيرٌ من الرياضيين الإقامة في دمشق، طمعاً في ظروفها الآمنة نسبياً، واستثماراً لمنشآتها الرياضية الناجية من الدمار. يقول أحد هؤلاء، طالباً إخفاء هويته أيضاً، إن تفرّغهم للرياضة لسنواتٍ طويلةٍ حرمهم من أية مقدرةٍ أو مهارةٍ للحصول على عملٍ، مما جعلهم في حالة تعلقٍ اضطراريةٍ بمؤسّسة النظام المختصّة "الاتحاد الرياضيّ العام"، الذي يقدّم إعاناتٍ شهريةً وبعض احتياجات التدريب ولوازمه الكثيرة ومرتفعة التكاليف.

ولا توجد جهةٌ سوريةٌ معارضةٌ ترعى الرياضة بشكلٍ جديٍّ، باحتضان اللاعبين البارزين على الأقلّ، رغم أن الحكومة المؤقتة شكلت، منذ ما يزيد عن ستة أشهر، هيئةً لدعم الرياضة تابعةً لوزارة الثقافة. إلا أن هذه الهيئة لم تبذل أيّ مجهودٍ يُذكر لدعوة الرياضيين أو لتأمين معسكرات تدريبٍ لهم، أو للتواصل مع الدول العربية المؤيّدة للثورة للمشاركة في البطولات التي امتنع النظام عن المشاركة فيها، كما حدث في الدورة العربية الأخيرة التي أقيمت في قطر.

ليس لدى تنظيم الدولة خبراء وبفضل الفنيّين والعمال المحليّين تستمرّ بعض الخدمات

منذر إبراهيم

لا شكّ في أن الجسم المقاتل في تنظيم "الدولة الإسلامية" جسمٌ فعالٌ في أداء وظيفته، لكن الأجسام الأخرى المؤلفة لكيان التنظيم أو كيان "دولته" ليست كذلك. ويمكن تلخيص دور التنظيم فيها بالشرطيّ الذي يحرس الإدارات أو التاجر المتنفذ الذي يستفيد منها.

"نحن دولة": هكذا تفهم الطبقة العليا من عناصر التنظيم نفسها، وبهذا سوّغت حربها على الآخرين وطالبتهم بالخضوع لسلطانها. غير أن هذا الفهم لم يستدع ما يقتضيه تعريف الدولة من مسؤوليةٍ، ثم ما توجبه هذه المسؤولية من وظائف. ففي تجربة حكم التنظيم لمحافظة دير الزور، من خلال الأشهر القليلة الماضية، تبرز ملاحظاتٌ عدّةٌ تبدّد الهالة التي أحاط بها عناصر التنظيم أنفسهم، وأحاطها بهم أيضاً متسرّعون من كتاب التقارير الصحفية، مأخوذين بتشغيل فرنٍ هنا وتركيب محوّلة كهرباءٍ هناك.

يعاني التنظيم في مسألة الدولة وإدارتها من عوائق ذاتيةٍ وأخرى ظرفية، ستحبس أداءه العام في مستوىً منخفض جداً، يكاد لا يتفوّق على أداء مجلس محليٍّ نشطٍ في نوع الأعمال ودرجة إتقانها، رغم افتقار المجالس المحلية -في تجربة إدارتها للمناطق المحرّرة- إلى السلطة التي يتمتع بها التنظيم وإلى الموارد الكبيرة التي تصبّ في بيت ماله. وأخذ السكان في مدن دير الزور وبلداتها بالمقارنة بين مرحلتين. وبدأوا كذلك بتلمّس الحقيقة، أو التأكد منها، بأن حكامهم الجدد ليسوا أكثر من شبّانٍ متحمّسين قليلي الخبرة بكلّ شيءٍ إلا إطلاق النار. وعندما يعدّد المعتدلون من مؤيّدي التنظيم المنافع العامة التي حققها يتوقفون عند فرض الأمن وملاحقة ناهبي الممتلكات العامة، ويطلبون التأني والصبر، "فالأخوة" يبذلون ما في وسعهم. وقد يكون الأمر كذلك، لكن بذل ما في الوسع لا يكفي وحده للنهوض بأعباء دولة، من دون بنيةٍ تشابه بنية الدول الحقّة.

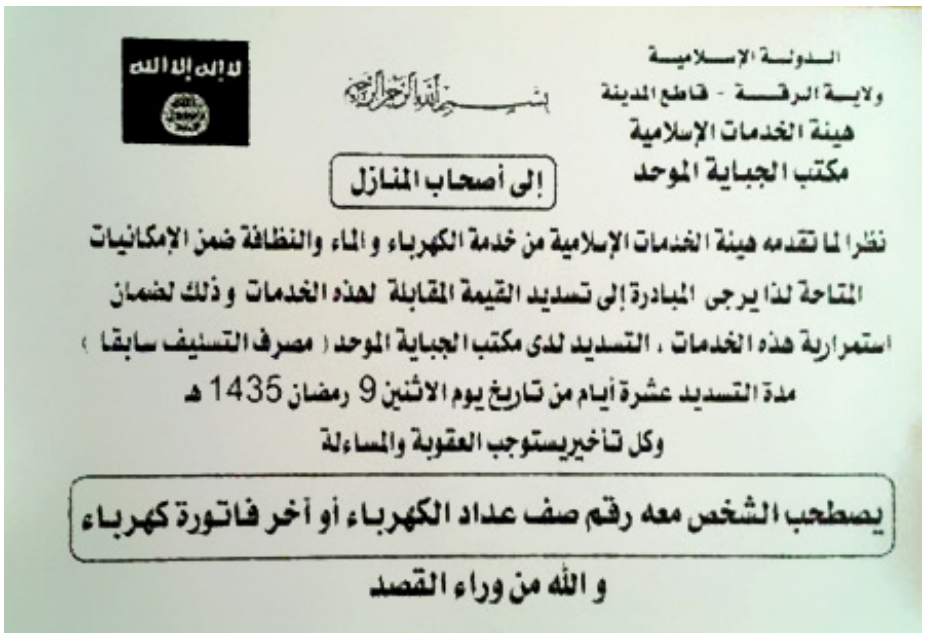

تجارب في الزراعة والخدمات

لم يلحظ السكان في معظم المناطق تغيراتٍ إيجابيةً في مستوى الخدّمات المقدمة لهم. وبقيت المشاكل ذاتها من دون حلولٍ جذرية، مشاكل تتصدّى لها في واقع الأمر الكوادر المحلية التي قامت بذلك خلال المراحل السابقة بعد التحرير. فالفنيون والعمال المحليون في قطاعات مياه الشرب والكهرباء والهاتف الأرضيّ هم من يشغّل هذه الخدمات. واقتصر دور التنظيم في عملية التشغيل تلك على تقديم بعض قطع الغيار والأجهزة من مستودعات الشركات الحكومية، التي تناوبت كتائب الجيش الحرّ وجبهة النصرة في السيطرة عليها، قبل أن "يغنمها" التنظيم من بين ما وقع تحت سيطرته، إضافةً إلى تقديم بعض المكافآت المالية غير المنتظمة للعاملين، واشتراط "البيعة" عليهم مقابل رواتب شهريةٍ معقولة. فعملت مكاتب خدمات المسلمين -الجسم المختصّ من التنظيم بالإشراف على الخدمات- بما هو موجودٌ من أدواتٍ ومعدّاتٍ وتجهيزاتٍ تعود بمعظمها إلى القطاع العام السابق، وبأذرع الفنيين المحليين، على حلّ بعض المشكلات مؤقتاً وبشكلٍ جزئيٍّ في غالب الأحوال. فلم ينقص، على سبيل المثال، عدد ساعات انقطاع التيار الكهربائيّ. ولم تلبّ كذلك احتياجات محطات تصفية المياه، وخاصةً من المواد غير المتوافرة في قائمة المسروقات المستعادة. وفي الموضوع الزراعيّ، وهو العنصر بالغ الأهمية في اقتصاد المحافظة، عجزت "الدولة" عن تأمين البذار والأسمدة للفلاحين، وتركز عمل التنظيم على صيانة بعض مشاريع الريّ، وبأذرع الفنيين المحليين كذلك وبتخطيطٍ منهم، وباستخدام الآليات والمعدّات التي أجبر التنظيم اللصوص على إعادتها. ولا يمكن تعميم هذا النجاح الجزئيّ في موضوع الزراعة على جميع القواطع - تسميةٌ إداريةٌ للمناطق في قاموس التنظيم- بل يُسجّل تفاوتٌ كبيرٌ بحسب تعاون كل أميرٍ زراعيٍّ وحماسته من قاطعٍ إلى آخر، وبحسب ثقافة السكان ودرجة اهتمامهم بالزراعة وقدرتهم على إقناع مسؤوليهم الجدد. وحول تأمين الخبز يسلك التنظيم سلوك المستثمر أكثر منه سلوك المسؤول الذي يقدّم الدعم لرغيف الخبز ليخفض من أسعاره، إذ استولى التنظيم على ما تبقى من مخزون الحبوب في الصوامع، وعلى جميع المطاحن المدارَة سابقاً من قبل المجالس المحلية، وعلى الأفران العامة، ليشغلها لصالحه دون أية تخفيضاتٍ في الأسعار، بل محققاً بهذا هامش ربحٍ شهريٍّ كبير!

في الحاجة إلى قضاءٍ مدنيٍّ للمناطق المحرّرة

الجيش الحرّ والقوى المتشدّدة وثقافة السكان أبرز عقبات مشروع القضاء البديل

المستشار أحمد توفيق

ابتداءً من حزيران عام 2012، انهارت السلطة القضائية في ريف دير الزور، بُعيد تحريره. إذ توقّف عمل المحاكم في مدن (التبني؛ هجين؛ البصيرة؛ الصوَر) ثم توقف في مدينتي البوكمال والميادين بعد تحريرهما كذلك. في حين استمرّت محكمة مدينة العشارة فقط بالعمل جزئياً، الذي اقتصر على توثيق عقود الزواج والطلاق ووكالات الكاتب بالعدل، إلى أن سيطر تنظيم "الدولة الإسلامية" على كامل المحافظة قبل أشهرٍ ثلاثةٍ من اليوم.

خلال عامين من الفراغ، لم تُسجّل أية محاولة جادّة لبناء جسم قضائيٍّ بديل في دير الزور، رغم حماسة بعض القضاة وبعض الوجهاء المحليين وكثير من النشطاء لهذه الفكرة، إذ أبدى أكثر من عشرة قضاةٍ في ريف المحافظة استعدادهم للعمل على بناء جسم قضائيّ، إلا أن هذا الاستعداد واجه عقباتٍ عدّة، يمكن تلخيص أبرزها بما يلي:

1- غياب الرغبة والاهتمام لدى قادة الفصائل والقوى المسلحة من الجيش الحرّ، والمسيطرة آنذاك، للمساعدة في بناء جسم قضائيٍّ فاعل. وذلك لأسبابٍ مختلفة، منها اعتبار القضاة تابعين للنظام، وفق نظرة بعض القادة العسكريين، وخشية البعض الآخر من وقوعهم هم أنفسهم تحت سلطة القضاء، مما يوقف تعدياتهم الكثيرة على الموارد والممتلكات العامة، أو يحيلهم للمحاكمة كمتهمين في قضايا سرقةٍ وانتهاكاتٍ مؤكدة. يضاف إلى ذلك الافتقاد إلى قيادةٍ عسكريةٍ واحدةٍ في المحافظة، ذات سلطةٍ على جميع القوى المسلحة، تمكن مخاطبتها وإقناعها بأهمية القضاء وخطورة غيابه على مشروع الثورة ككلّ.

2- إن الطبيعة العشائرية لمجتمع ريف دير الزور لا تتلاءم بالأصل مع مفاهيم القضاء الحديث. فالقضاء واحدٌ من معطيات التمدن. ولا تلائم هذه الطبيعة كذلك فكرة العقد الاجتماعيّ القائم على مفاهيم المواطنة وانتماء الفرد وولائه للدولة.

3-معارضة الحركات والتيارات الدينية المتشدّدة، الآخذة آنذاك بالتمدد والسيطرة، لأيّ تشكيلٍ قضائيٍّ خارج سلطتها، بذرائع مختلفة. مثل اتهام القضاء بالحكم انطلاقاً من قوانين وضعيةٍ تتنافى مع أحكام الشريعة، التي أرادوا تطبيقها وفق رؤية هذه التيارات وعلى طريقتها الخاصة.

4- عدم اهتمام المعارضة السياسية، ممثلة بالمجلس الوطنيّ ثم الائتلاف، بالشأن القضائيّ. وهي الجهة المنوط بها رعاية هذا المشروع وتمويله والحرص على نجاحه، لأنه أحد العناصر البارزة للمرحلة الانتقالية، وإحدى علامات السيادة والشرعية والحضور الشعبيّ الذي تفتقر هذه المعارضة إليه. وفي السياق ذاته لم تبذل وزارة العدل، بعد تشكيل الحكومة المؤقتة، أيّ جهدٍ يذكر سوى تقديم بعض المساعدات المالية لبعض القضاة المنشقين، وإقامة بعض الأنشطة التثقيفية في الخارج، من محاضراتٍ وندواتٍ وورشات تدريب، وغير ذلك من الأعمال التي يمكن لأيّة جمعيةٍ خيريةٍ أو منظمة مجتمعٍ مدنيٍّ أن تقوم بها.

5- قلة الثقافة القانونية لدى معظم السكان، أو انعدامها، وغياب وضوح مفهوم القضاء ككل. بسبب علاقة القضاء السابقة بالسلطة المستبدة، واعتباره ذراعاً من أذرعها القمعية، مما ولد تقاليد راسخةً تقوم على فكرة التملّص من القانون وخداعه بأي شكل.

كيف تُبنى مؤسسةٌ قضائيةٌ في أرضٍ محرّرة؟

تأتي الثقة بالقانون، وقبل كل شيء، من الثقة بالسلطة السائدة. فإذا كانت السلطة منضبطةً، تخدم المواطن وتحميه، ويراها كذلك، سيكون هذا المواطن واثقاً بالقضاء ومستسلماً لسلطته وأحكامه. ولكي نفكر بالقضاء البديل في المناطق المحرّرة، أو المناطق الخاضعة تحديداً لسيطرة الجيش الحرّ، لا بدّ أولاً أن نفكّر بطبيعة السلطة التي يفرضها هذا الجيش. ويمكن هنا وضع عددٍ من الاشتراطات الأولية بخصوص البيئة العامة، نحدّدها بما يلي:

1- أن تكون السلطة التنفيذية موحّدةً في إطارٍ هيكليٍّ واضح الرأس والقيادة، وأن تكون ذات طابعٍ مدنيٍّ بأجهزةٍ واضحة المعالم محدّدة الوظائف، وأن تنال هذه السلطة ثقة السكان وتحظى باحترامهم، وأن تكون قادرةً على حماية المؤسسة القضائية وتنفيذ إجراءاتها وأحكامها.

2- أن يكون القضاء الناشئ مستقلاً لا يتبع أو يخضع أو يتأثر بالسلطة التنفيذية أو بأيّ اعتبار آخر سوى مبدئه العام بتحقيق العدالة.

3- بغياب السلطة التشريعية، واستحالة بناء بديل لها في الظروف الراهنة، تجب مواصلة العمل وفق منظومة القوانين السابقة فيما خلا بعض الحالات الخاصّة التي فرضها الواقع المستجد، مثل التهرّب من دفع فواتير الكهرباء والماء، والتعدّي على المناطق الحراجية لتأمين حطب التدفئة، أو البناء من دون رخصة، وغيرها من القضايا المصنّفة في خانة الجنح.

4- بناء هيكل قضائيٍّ وفق ما تتيحه الظروف. إذ يمكن التخلي عن قاضي التحقيق وقاضي الإحالة، وحصر كافة التحقيقات بالنيابة العامة التي تأمر بانتهاء التحقيق إما بإخلاء السبيل أو بإحالة المتهم إلى المحكمة المختصّة بحسب نوع التهمة أو الجرم. فان كان مخالفةً أو جنحةً يُحال المتهم إلى المحكمة الابتدائية، وهي بديلٌ مستحدثٌ ينتج عن دمج محاكم صلح الجزاء بمحاكم بداية الجزاء. وإن كانت التهمة جنائية الوصف يُحال المتهم إلى محكمة الجنايات التي يمكن أن تكون مرجعاً استئنافياً أيضاً للمحكمة الابتدائية. كما يمكن دمج محكمتي الصلح المدنيّ والبداية المدنية في محكمة واحدة هي المحكمة الابتدائية المدنية. ويمكن أيضاً أن تكون محكمة الجنايات مرجعاً استئنافياً لها. وفي هذه الحالة يجب أن تكون محكمة الجنايات مركزيةً على مستوى الإقليم أو المحافظة، فيما تكون المحاكم الأخرى موزّعةً في المدن والبلدات. وكذلك إحداث محاكم خاصّة بالأحوال الشخصية (المحاكم الشرعية) تكون محكمة الجنايات مرجعها الاستئنافيّ أيضاً. وأخيراً، تجب إعادة تشغيل مكاتب (الكاتب بالعدل) في مقارّ المحاكم الابتدائية.

الفقر والنزوح وإغلاق المدارس... أبرز أسباب الزواج المبكّر

حياة الخضر

بين أقلّ من 500 عائلةٍ نازحةٍ إلى بلدتي سعلو وبقرص في ريف دير الزور الشرقيّ، أحصت "عين المدينة" (36) حالة زواجٍ مبكّر، لم يتجاوز عمر أكبر الفتيات فيها (17) عاماً.

تتعدّد مبرّرات الأهل لإقدامهم على تزويج بناتهم قبل السنّ المعتادة، من تخفيف الأعباء المادية بالتخلص من "فم نطعمه"، كما تذكر إحدى الأمهات وهي تتحدّث عن المصاعب الكبيرة التي تقاسيها كلّ يوم لتأمين طعام أطفالها، إلى غياب البديل في حياة الفتاة بعد أن تتوقف عن الذهاب إلى المدرسة، نتيجة انهيار العملية التعليمية، وخاصةً في حياة النازحين. "فأن تمكث الفتاة في بيت زوجها خيرٌ من المكوث مع عائلتها في خيمةٍ أو تجمّع نازحين"؛ هذه إحدى المقولات السائدة لدى الأمهات والآباء حول ظاهرة الزواج المبكر. وتتفاقم الحالة عند وفاة أحد الوالدين، فالحال الأفضل للفتاة اليتيمة هو أن تكون متزوجة. تقول أمٌّ نازحةٌ إنها -وبعد وفاة زوجها- اضطرّت إلى تزويج أكبر اثنتين من بناتها (14-16) سنة. ولم يكن أمامها خيارٌ آخر، وخاصةً مع وجود خمس فتياتٍ أخريات. لكن مخطط هذه الأم لم يكتمل، بسبب طلاق ابنتها الأصغر بعد أربعة أشهرٍ من الزواج. وتشير حادثة الطلاق هذه إلى ظاهرةٍ أخرى مترافقةٍ بظاهرة تزويج الفتيات المبكر، إذ تفشل الزوجة الطفلة في حالاتٍ كثيرةٍ في القيام بدور الزوجة المألوف، مما يؤدي إلى طلاقٍ سريع، وخاصةً في الحالات التي لا يستوعب فيها الزوج قلة نضوج زوجته صغيرة السن.

وللمهاجرين دورٌ أيضاً

هناك عاملٌ آخر في ظاهرة الزواج المبكر، هو تدخل عناصر تنظيم "الدولة الإسلامية" المسيطر على المنطقة في هذه المسألة، وخاصّةً المهاجرين منهم. إذ تحضّ الثقافة الخاصّة بهؤلاء على استسهال الزواج في أية أرضٍ ينزلون بها، وأيّ مجتمعٍ يقتربون منه أو يسيطرون عليه، دون أن يقيموا أيّ اعتبارٍ للخصوصيات المحلية لهذه المجتمعات. فالزواج حالة ارتباطٍ دائم ومستقرٌ لا تستقيم مع نموذج الحياة المضطرب والمتنقل وكثير المخاطر الذي يحياه الشبان المهاجرون. ويمنع الموقف العام للسكان المحليين، غير المرحّب بالمهاجرين، من الاستجابة لطلبات الخطوبة التي يبديها بعض هؤلاء. ولا توجد أدلةٌ تؤكّد الشائعات التي تدور عن حالات تزويجٍ بالإكراه منهم، رغم صحّة ما يقال عن عمليات احصاء للفتيات تقوم بها بعض النسوة المتحمّسات للتنظيم أو المنتسبات إليه. وتروي سيدةٌ نازحةٌ - رفضت الكشف عن هويتها- عن زيارةٍ لبيتها، تشبه الاقتحام، قامت بها مجموعةٌ من النسوة المهاجرات تحمل بعضهنّ سلاحاً، بهدف البحث عن فتياتٍ عازبات، لتقييدهن على قوائم الزواج. وتروي السيدة ذاتها قصةً سمعتها عن إصرار تونسيٍّ على الزواج من فتاةٍ جميلةٍ لا تتجاوز 14 عاماً، وتمكّنه من ذلك بعد أن دفع مبلغ عشرة ملايين ليرةٍ مهراً لها، مستغلاً فقر عائلتها الشديد.

في مخيم للنازحين بريف دير الزور الشرقي

وقطّة البيت تغفو حيثُ ترتاحُ

علي خطاب

تشعر الحيوانات بما نشعر به من فزعٍ عندما تنطلق قذيفة المدفع، وبعدها بثوانٍ، وحتى تنفجر بارتطامها بالأرض. لم نكن نحمل كثيراً من المودّة لمن يشاركنا اليوم هذه المشاعر. ولكن، بعد الحرب، تبدّلت مشاعرنا هذه كما تبدّل الكثير في حياتنا.

قد يكون قتل الفراغ هو الدافع وراء حوادث تعذيب القطط، التي كان يتلذّذ بها البعض، أو قد تكون ردّة فعلٍ على قسوة السلطات واستبدادها، كما يقول بعض المهتمّين بعلم النفس الاجتماعيّ، وقد يكون كلاهما معاً، لتشكل حكايا القطط واحدةً من مظاهر الخشونة العامة قبل الثورة. أما بعدها، في دير الزور المحرّرة، فقد تغيّرت العلاقة مع هذه الكائنات إلى حدٍّ كبير. فلا يكاد يخلو بيتٌ اليوم، في أيّ حيٍّ من أحياء المدينة، من هرٍّ أو أكثر، في الوقت الذي يعاني فيه البشر من مصاعب كبيرةٍ للنهوض بأعباء العيش اليومية، في جوٍّ من القلق، وحالةٍ تقترب من الجوع، وعلى أصوات القذائف التي لا تنقطع. لكن السكان تكيّفوا، في علاقتهم الجديدة بالقطط، مع ظروفهم القاسية. فعملوا على تعويدها، هي الأخرى، على تلك الظروف. إذ يمكن أن تجعل من هذا الحيوان اللاحم نباتياً بإطعامه النباتات فقط في سنٍّ مبكّرة. يقول عثمان، وهو بيطريٌّ مختصّ: "بعض الناس يطعمون القطط بقايا الطبخ، والبعض الآخر الخبز والبطاطا المسلوقة. بي إشاعة بالجورة -حيٌّ محتلٌّ في دير الزور- أنه البسوس عندنا توحّشت قد ما أكلت جثث!".

يفسّر البعض ظاهرة العناية بالقطط بالحاجة إليها لمكافحة الفئران التي استباحت المدينة، مستغلةً غياب سكانٍ كثر عن بيوتهم هرباً من الحرب، وكذلك تراكم النفايات وتراجع النظافة العامة. ويشرح أيهم، وهو شابٌّ من حيّ الحميدية، سبب تربيته لقطٍّ في المنزل: "تشقق الحيطان، ونزوح الناس من بيوتهم، وتراكم الأوساخ سبّب انتشار الفار. وما لقيتو حلّ إلا أجيب بسّ. وما لقيتو أحسن من عنتر -اسم القط- لطردها. وفعلاً من هذاك الوقت ما شفتو فارة بالبيت".

ورغم وجاهة السبب الذي يقدّمه أيهم -والذي يؤيده فيه الكثيرون- إلا أنه لا يكفي لتفسير هذه العاطفة الفجائية تجاه القطط في دير الزور. فهناك دوافع أخرى قد تكون الوحدة وساعات الترقب والانتظار، وقد تكون الرغبة في رؤية شيءٍ ما بعيداً عن الحرب.

كما فعل معلّم المدرسة أبو أيمن، الذي أنقذ قطّة جاره الإفرنجية المدللة من التشرّد، فآواها بعد نزوح الجار، وتعلّم العناية بها، ووزّع بعض جرائها -بعد أن ولدت- لأصدقاء ومعارف، وعلّمهم بدوره كيف تُنظف وتُقصّ مخالبها: "أحياناً أقضي ساعات وأنا أتفرّج عليها وهي تلعب. هي ذكية تتعلم بسرعة. وصارت لما تسمع صوت قذيفة تركض تا تتغبى تحت أقرب كنبة أو كرسي، ولما يهدى القصف تطلع من جديد".

السفّاح التائب

في الماضي، وبعد غزوةٍ ليليةٍ لإحدى القطط على "قنّ حمام" يملكه أحمد، قرّر مربّي الحمام الشابّ أن ينتقم من فصيلة القطط كلها. فاشترى من الصيدلية الزراعية مادة (لانيت -ميثوميل) لتكون سمّاً يتبّل به السمك ليكون "طعماً"، قبل أن يرميه في حاوية القمامة ليقتل أكبر عددٍ من القطط. وهذا ما حدث فعلاً؛ إذ شاهد الجيران أكثر من عشرٍ منها ميتةً في الحاوية. كان هذا قبل الثورة، أما اليوم فقد تغيّر أحمد كثيراً، فانقلب سفاح القطط هذا إلى شخصٍ وديع معها، وأصبحت رعايتها واحدةً من اهتماماته اليومية. وهو الآن واحدٌ من مربّي القطط، الذين لم يكونوا محلّ احترامه من موقعه كرجل حمام: "عندي بسّ، هارون، مربّيه. وسميتوه رعد".

ولا يكفي "رعد" لإيقاف تأنيب الضمير لدى مسمّم القطط السابق. فما زال الرجل -بحسب ما يقول- يشعر بالألم ويظهر ندماً على ما فعل بحقّ ضحاياه. فهو لا يستطيع أن ينسى صورتها ميتةً بالسمّ بجوار بعضها في الحاوية، ويفكر جدياً بالتكفير عن ذنبه بدفع ديةٍ عنها للفقراء: "يقولون اللي يقتل بسّة لازم يتصدّق بحنطة بحجم البسّة وهي واقفة من الراس لآخر الذيل". ويسخر من نفسه لأنه قام بتسميم القطط لأنها هاجمت الحمام، مقارنةً بما يحدث اليوم: "صرتو ما ألوم هالحيوان لما يهجم عالحمام تا ياكل، لما أشوف الناس الفهمانة والمتدينة -على أساس- تذبح بعضها!".

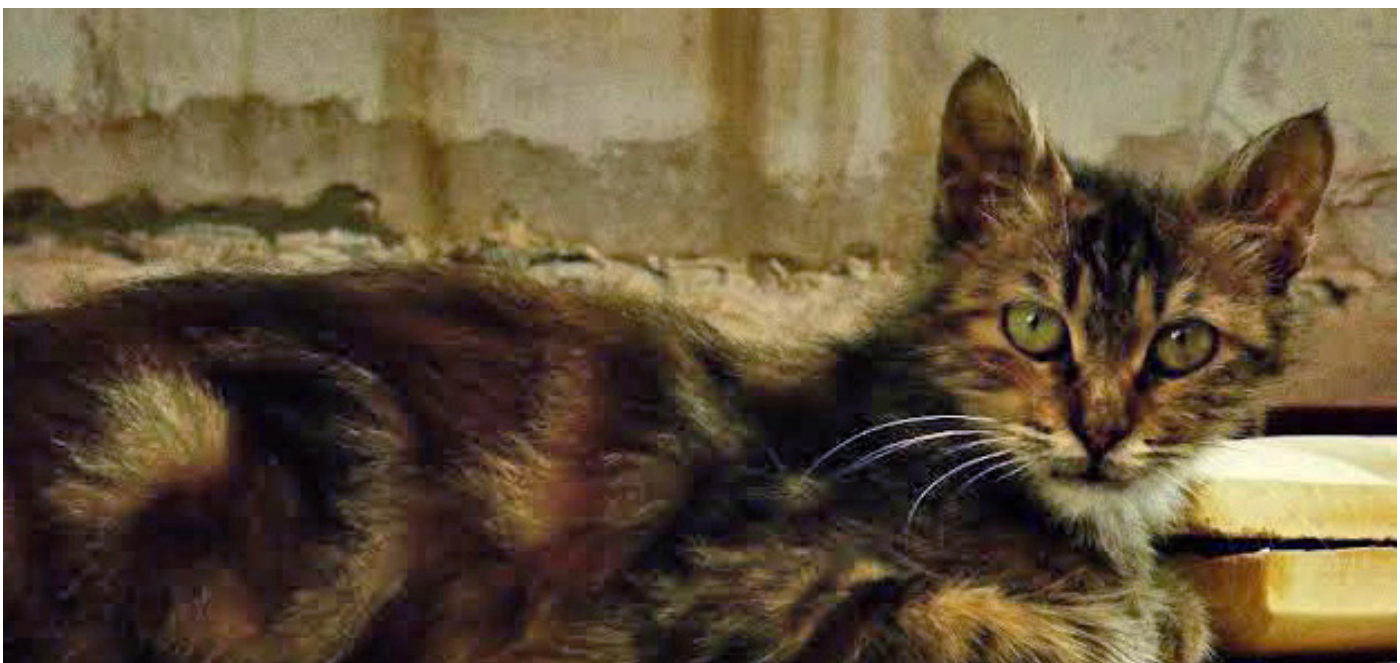

شتاءٌ دافئ... أقصى ما يتمنّاه السوريّ في هذا الوقت

عمر الشامي

في ريف إدلب، كما في مناطق كثيرةٍ من البلاد، يعاني المواطن السوريّ من مشكلةٍ بدأت تلوح في الأفق القريب، وهي كيف سيؤمّن وسائل التدفئة في فصل الشتاء؟

ارتدى معطفه وجلس بجوار أمه، وبدأ يفكر كيف سيمضي يومه من غير أن تتجمّد أصابعه من البرد. يبلغ أحمد من العمر 10 سنوات، من سكان ريف إدلب. في أعوام سابقة، كان الشتاء بالنسبة إليه فصلاً ينتظره طوال العام، لأنه فصل الاسترخاء والحميمية، لكنه أصبح الآن فصل الأصابع الزرقاء والوجه المحمرّ والاكتئاب. يمضي أحمد يومه بين الجدران الباردة، والمدفأة المصمودة في زاوية البيت قد أصبحت أحد ديكورات المنزل التي لا عمل لها، في ظلّ تردّي الأحوال المعيشية ونقص قد يصل إلى الجفاف في المواد النفطية.

لم يذق خزّان المنزل طعم المازوت لما يقارب العامين. ويستعيض الناس عن ذلك بارتدائهم ثلاثة أو أربعة معاطف داخل المنزل. بعض العائلات تعيش في غرفتين ضيّقتين تصفر فيهما الريح، بينما تتضاعف معاناة أولئك الذين نزحوا من بيوتهم إلى الخيم، أو حتى إلى المدارس والملاجئ، ولم يصطحبوا معهم البطانيات أو السجاد الذي يسدّ بعض حاجاتهم في هذا الفصل.

في ظلّ هذه الظروف جاءت مادة الحطب لتعدّل الوضع قليلاً، فاضطرّ معظم المواطنين إلى تركيب مدافئ تعتمد عليها. وبسبب ازدياد الطلب على الحطب ارتفعت أسعاره إلى الضعف، فوصل سعر الطن إلى 20 ألفاً وما فوق، حسب نوعه. وانتشرت ظاهرة إشعال النار للتدفئة، هو الخيار الوحيد الذي يعتمده أغلب النازحين، رغم أنه يكون أحياناً مصدراً لأمراض تنفسية خطيرة. هناء أرملةٌ في ريف إدلب، استشهد زوجها في معارك وادي الضيف، لم تجد مع عائلتها سوى البراميل التي توقد فيها الأخشاب والأوراق والمواد البلاستيكية مصدراً للتدفئة.

ولجأ الأهالي إلى إعانات منظمة الهلال الأحمر واللجنة الدولية للصليب الأحمر، وغيرهما من الجمعيات الإغاثية والإنسانية التي توزّع البطانيات والفرشات والحصر، وأحياناً كسوة الشتاء. لكنها، على الأغلب، لا تغطّي الحاجات المطلوبة للسكان. وفي سياق متصل يقف الناس في طوابير متدافعة أمام محطات تعبئة الوقود، حاملين "قناني" صغيرة، وفي أحسن الأحوال "بيدونات"، تكفي لإشعال المدفأة لساعات قليلة. فليست هناك إمكانيةٌ لشراء كميّاتٍ أو تعبئة الخزّان المهجور على السطح، إذ يبلغ سعر ليتر المازوت الواحد أكثر من 150 ليرة سوريةً في إدلب، مع وعودٍ متكرّرةٍ كلّ عام بأن الأزمة ستحلّ قريباً! كان أبو عبد الله يعتمد، في كلّ شتاءٍ قبل الأزمة، على مدفأة الكهرباء والسخانة وسيلةً للتدفئة. أما الآن فيقول: "الذي تغيّر عن العام الماضي، وبشكلٍ ملحوظٍ، هو انخفاض أسعار الكهرباء. ولكنّ هذه الوسيلة انقرضت منذ عامين عندنا، بعد قيام النظام بقطع الكهرباء عن ريف إدلب بمعظمه. ونأمل أن تكون هذه الشتوية أفضل من سابقاتها". في مدينة جسر الشغور، المحاصرة منذ أكثر من عامين من قبل قوّات الأمن والشبيحة، المواد النفطية ومشتقاتها غير متوافرة، لا للتدفئة ولا لغيرها من الاستعمالات اليومية. لا يوجد مازوتٌ نظيفٌ، وإن وجد فأسعاره خياليةٌ لا تناسب أهالي المدينة. تقطير البلاستيك "مازوت البلاستيك" هو البديل هناك اليوم. ويتراوح سعر الليتر منه بين 120 و140 ليرةً سورية.

وفي ظلّ الفقر المدقع الذي يعاني منه المواطن الإدلبيّ، والسوريّ عموماً، يجد نفسه في مواجهة شتاءٍ وصفه البعض بأنه الأبرد منذ مئة عام. وصارت الحكاية/ الهاجس التي تتكرّر في كلّ منزل تحمل عنوان "المحروقات - والشتاء القاسي". فبعض الأشخاص يستطيع بصعوبةٍ تأمين بعض الدفء لعائلته، والبعض الآخر لا يرجو من الله سوى الرحمة ليمرّ هذا الشتاء بسرعةٍ وهم على قيد الحياة.

من موقع uaeinteract.com

السوريون يسلكون طريق الموت للوصول إلى جنان أوربا

حسن ممس

كلّ شيءٍ يدفعنا إلى الهرب بعيداً؛ هذا لسان حال معظم المهجّرين عن بيوتهم طلباً للنجاة وأملاً بمكانٍ آمن. لكن المقام المؤقت، بعد المغادرة الأولى، لا يخلو من المعاناة أيضاً. مما دفع بالكثيرين إلى التفكير بالهجرة إلى أوربا والوصول إلى هناك بأية طريقةٍ كانت.

يروي اللاجئون السوريون إلى السويد قصصاً لا تخلو من المغامرات الخطرة للوصول إلى برّ الأمان. ويذكرون معاناتهم اليومية السابقة في ظلّ الظروف الرهيبة التي عاشوها في وطنهم قبل الفرار منه. ويذكرون كذلك المصاعب الهائلة التي اجتازوها وصولاً إلى أوربا. "كانت مجموعتنا تتكوّن من ستة أشخاص. وصلنا، أنا واثنان آخران، فيما توفّي ثلاثةٌ على الطريق"؛ هكذا بدأ صالح (29 عاماً) سرد قصة عبوره الحدود التركية اليونانية بطريقةٍ غير شرعية، أملاً بالوصول إلى السويد والحصول على حقّ اللجوء فيها. صالح، الحاصل على شهادةٍ جامعيةٍ في هندسة نظم الحاسوب، واحدٌ من آلاف السوريين الذين خاضوا ويخوضون مساراتٍ مليئةً بالمغامرات والمخاطر في سبيل الوصول إلى دولة الأحلام (السويد)، التي أضحت قبلة السوريين الراغبين في اللجوء إلى أوروبا منذ اندلاع الثورة. ولا تتوافر أرقامٌ دقيقةٌ عن مجموع هؤلاء، خاصةً وأن نسبةً منهم تلقى حتفها أو تتوه في طرق ومخيمات الاحتجاز الكثيرة في بلدان العبور قبل أن تبلغ غايتها. اضطرّ الشاب المنحدر من مدينة درعا إلى مغادرة بلاده، هرباً من ملاحقة الأجهزة الأمنية، فتوجّه إلى الأردن أولاً ومنها إلى تركيا، قبل أن يسلك طريق المهاجرين غير الشرعيين برّاً أو بقاربٍ صغيرٍ عبر البحر.

غادر صالح باتجاه مدينة إسطنبول التركية، ومنها إلى إزمير، حيث فشلت أولى تجارب عبوره الحدود مع اليونان، إذ اكتشف خفر السواحل اليونانيّ القارب الذي كان يُقلّهم قبل مئات الأمتار فقط من الوصول إلى جزيرةٍ يونانية. وفي المحاولة الثانية، مع مهرّبٍ من مدينة حلب السورية، قضى صالح ومجموعته -التي تضمّ شاباً آخر وعائلةً من اللاذقية مكونةً من زوجين وطفليهما- أكثر من ساعتين لاجتياز بضعة كيلومتراتٍ في مياه بحر إيجه، بسبب عطل أصاب قاربهم بُعيد الانطلاق ورفض قائده العودة. يقول صالح إن العطل الذي أصاب القارب لم يكن المفاجأة غير السعيدة الوحيدة، فبدلاً من أن يتمّ إيصالهم إلى نقطةٍ قرب أحد الموانئ، بحسب الاتفاق المسبق مع المهرّب، وضع قبطان الرحلة اللاجئين الستة في منطقةٍ تبعد عدّة كيلومتراتٍ عن أقرب شارع. ويبيّن صالح أن "هذه الكيلومترات كانت جروداً صخريةً مرتفعةً وقاسية، فيها دربٌ ضيقةٌ لا يتجاوز عرضها نصف متر". بلا دليلٍ يقودها، تاهت المجموعة في الجرود الصخرية، ولم يُجدِها الاتصال بالنجدة اليونانية طلباً للمساعدة. بعد يوم كاملٍ بلا مياهٍ أو طعام، وإثر ليلةٍ بلا نومٍ بسبب البرد الشديد في العراء، استأنفت المجموعة مسيرها، لينفصل عنها ربّ الأسرة ويسلك طريقاً شاطئياً، إلى أن وصل أخيراً إلى مكانٍ مأهولٍ، ليأتي بالنجدة وينقل عائلته، قبل أن يواصل رحلته مرّةً أخرى انطلاقاً من اليونان.

يتقاضى المهرّبون مبالغ كبيرةً من المهاجرين غير الشرعيين، قد تصل إلى 12 ألف يورو للشخص الواحد، مقابل حيّزٍ ضيقٍ جداً على قاربٍ صغيرٍ يُحشر فيه أكثر من 100 شخص، في حين لا تتجاوز حمولته الطبيعية العشرين شخصاً، معرّضاً ركابه، وطاقمه نفسه، لخطر الغرق!

ومن جهتها، قامت الحكومة التركية مؤخراً بفرض حصارٍ خانقٍ على حدودها البحرية، للحدّ من ظاهرة الهجرة غير الشرعية انطلاقاً من أراضيها. إذ ألقت "الجندرما" التركية القبض على حوالي مائتي سوريٍّ عزموا على السفر إلى أوربا على متن سفينةٍ كانت ترسو على سواحل بلدة "أردملي" بالقرب من مدينة مرسين التركية، في ما يبدو أنه مباشرةٌ في تطبيق الاتفاق مع الاتحاد الأوربيّ بهذا الخصوص. وقالت وسائل إعلام تركيةٌ إنه قد تمّ نقل اللاجئين المقبوض عليهم على متن السفينة إلى قاعةٍ رياضيةٍ في البلدة، قبل أن يسلّموا إلى شعبة الأجانب في ولاية مرسين.

سوريون في قبضة الجيش التركي خلال محاولة عبورهم إلى اليونان – AKNEWS

مسقط رأس الأسد

أليمار إسماعيل

رأس الأسد هو رأس النظام السوريّ، على الأقلّ كرمزٍ لحقبةٍ مرّت بها البلاد، منذ سبعينيات القرن الفائت. وما إن يسقط هذا الرمز حتى تسقط معه الكثير من قيود النظام، إذ إنّ القادم لن يستطيع قمع السوريين. وإن فعل فستكون آلياته عاريةً وضعيفةً إلى حدٍّ كبير، بعكس آليات النظام الحاليّ، التي لم تقتصر فقط على الترهيب بشتّى أنواعه، بل تعدّته إلى خلق بيئةٍ مواليةٍ له، تدافع عنه حتى الرمق الأخير، وهذا أخطر ما في الأمر. فالعلويون، ومنذ استلام الأسد الأب السلطة، أصبحوا فئةً نافذةً، غزت المدن السورية بسرعةٍ، واستلمت المناصب الحسّاسة والفاعلة. فاعتمدوا على النظام في عيشهم، بدفعٍ واضحٍ منه. وأصبح راتبه هو العطاء الذي يجعلُ من حياتهم جيّدةً، وفي بعض الأحيان فارهة، عكس ما كانت عليه قبل هذه الحقبة. عندما كانوا منبوذين، وضعفاء، وحتّى تسميتهم كعلويين كانت محلّ إدانةٍ لهم. إضافةً إلى الفقر الشديد الذي عانوا منه، فهم يقطنون بيئاتٍ جبليةً قاسية التضاريس والمناخ. حتى جاء الأسد وأخرجهم من انغلاقهم الشديد، لكن حسب ما يقتضي أمر بقائه في السلطة كمستبدّ.

ومن هنا نرى مدى أهمية النظام بالنسبة إلى العلويين. فهم، وعلى مدى قرون، لم يتنفسوا الصعداء ولم يُعترف بهم كطائفةٍ لها الحقّ في الحياة حتى استيلاء الأسد على السلطة. ومن هنا نستطيع أن نفهم حالة التأليه التي وصل إليها بشار الأسد عقب اندلاع الثورة، فقد أحسّوا أنّ هذا الحقبة في خطر، وأن مأساتهم في العودة إلى الجبال والكهوف قادمةٌ لا محالة فيما لو سقط.

هكذا، لم يكن النظام مضطرّاً وقتها إلى أن يلاحق المعارضين العلويين، أو إلى طلب الاحتياط العسكريّ، فقد كانت قاعدته الشعبية مندفعةً بقوّة للدفاع عنه بشكلٍ شرس. وكانت اللجان الشعبية بدايةً، ثم ميليشيا الدفاع الوطنيّ، هي البنى التي عبّأت له ما يحتاج من مقاتلين، يسند إليهم الجرائم التي يندى لها الجبين، بعيداً عن الجيش وعن مسؤولياته المباشرة. ليجعل من صورته، كنظامٍ وكقائدٍ لجيشٍ "عقائديّ"، لامعةً وقادرةً على الاستمرار فيما لو أخمدت الثورة.

ومع تقدّم الثورة وتطوّر آليات دفاعها عن نفسها، اضطرّ النظام إلى زجّ الجيش بكل قواه في معارك أصبحت أكثر ضراوةً، وازدادت تكاليفها البشرية. ومع أفول جميع وعود النظام بأنّ "الأزمة" تشارف على الانتهاء، أخذ العلويون يتحسّسون مستقبلهم، وبدأت الكثير من الأسئلة تنضج في رؤوسهم. كما أنّ الغلاء وفقدان الحاجات الأساسية من السوق، وفقرهم الذي صار يزداد يوماً إثر يوم، جعلهم يعودون إلى شعورهم القديم بأنّهم متروكون لمصيرهم المجهول.

نظام الأسد الآن في غير محلّ ثقتهم، وهم بالتالي قد فقدوا سندهم.

وسقط الأسد عملياً، ولم يبق منه سوى حاجة كلّ القوى الفاعلة إلى وجوده المؤقت. وفقد العلويون معه البوصلة التي تجعل منهم كتلةً تتحرّك باتجاهٍ واحد؛ فمنهم الآن من يشتم الأسد علناً، ومنهم من يتهمه بكافة أنواع العمالة، دون أن يتأتّى عن ذلك أيّة ردود أفعال، سواء من السلطة أم من المجتمع المحيط، الذي يشعر معظمه الآن أن الأسد جزءٌ من لعبةٍ تستهدف فقراء العلويين، في حين كان المساس باسمه أوّل الثورة محض انتحارٍ لأيّ معارض منهم.

فهم، كطائفة، لم يستطيعوا منذ نشأتهم أن يجتمعوا حول مرجعيّةٍ واضحة، بل كانوا يتوزّعون خلف قياداتٍ عشائريةٍ ومناطقية، تجتمع في أحسن الأحيان (إبّان الاحتلال الفرنسي) لتصبح مرجعيّةً هشّةً ينفرط عقدها بسرعة. ومع وصول الأسد إلى السلطة عمل على ضرب هذه القيادات الصغيرة، ليصبح هو المرجع الوحيد للعلويين ومنجاتهم الحصريّة. أما الآن، وقد شارف الأسد الابن على الانهيار، فقد عادوا إلى حالة التشتت والضياع. وهنا صارت الفرصة سانحةً لظهور مرجعيةٍ للعلويين، ليس من الضروريّ أن تكون دينيةً، ومن الممكن جدّاً أن تكون سياسية. ولم يكن اغتيال قائد الأركان ووزير الدفاع علي حبيب، أو حتى تكبيل وزير الإعلام السابق، محمد سلمان، سوى فصلين بسيطين من محاولات الأسد الدائمة إخفاء نجم أيّ علويٍّ قد يحلّ محلّه.

وهذا كلّه إشارةٌ واضحةٌ إلى أنّ مرحلةً طويلةً من الاستبداد قد انتهت، أو شارفت على الانتهاء. ونستطيع، كقوىً للثورة والمعارضة، أن نخلق بديلاً وطنياً يطمئن الجميع إلى مستقبلهم، قبل أن يخلق غير السوريين هذا البديل.

انتظار الموت في حلب (2 من 2)

يوميّات الجحيم

كريستوف روتر/ مجلة دير شبيغل
ترجمة مأمون حلبي عن الإنكليزية

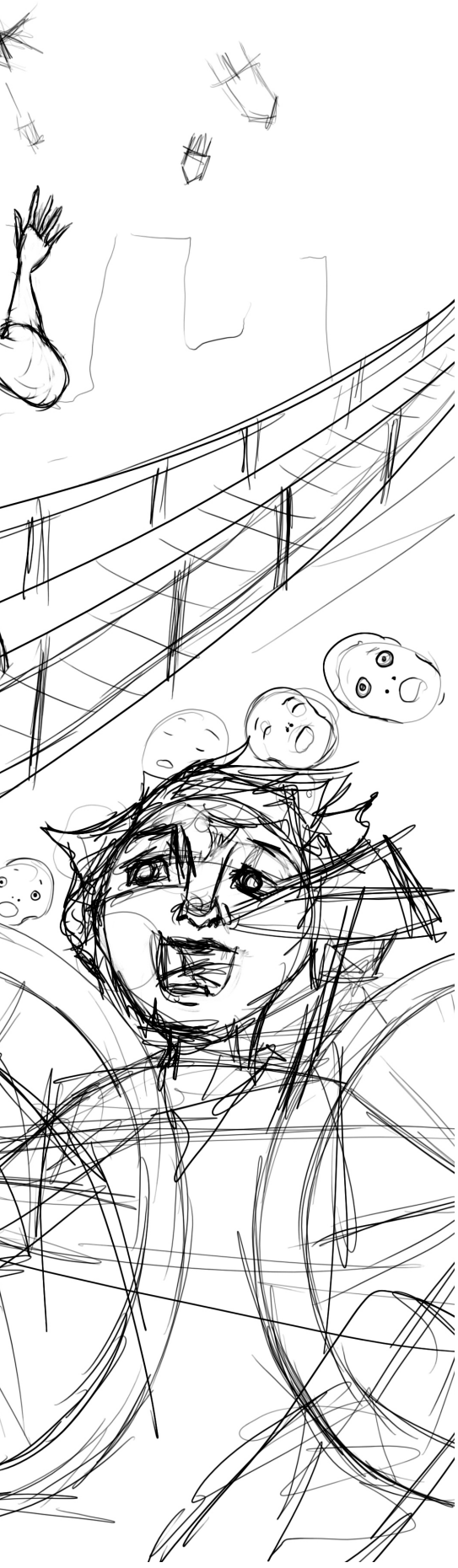

الوقت مبكّرٌ، في أوّل أسبوع من شهر أيلول، والجميع ما زالوا أحياء: زكريا، جارته الشابة سمر، محسن الكهربجي، امرأةٌ متّشحةٌ بالسواد، و12 عاملاً مياوماً من حيّ الحيدرية. إنهم 16 شخصاً من أجزاء متنوّعةٍ من المدينة. لا شيء مشترك بينهم سوى أنهم ما زالوا في حلب.

أجهزة اللاسلكي التي تخصّ شرطة الثوّار ورجال الدفاع المدنيّ تبدأ بالرنين. امرأةٌ تمشي على جسر الصاخور؛ أمرٌ قد يؤدّي إلى الهلاك. "يا إلهي! ما الذي تفعله هناك؟ لا بدَّ أنها مجنونة"؛ يقول أحدٌ ما على اللاسلكي. سبقَ وأن نُصبت حواجز من باصاتٍ محترقةٍ ومخلفات بناءٍ لمنع الناس من استعمال الجسر، لكن المرأة تزوغ عن الحواجز وتبدأ المشي فوق الجسر. ثانيتان وتنطلق الرصاصة الأولى. تنحني المرأة ثم تواصل المشي. يستمرّ إطلاق النار، ومع الطلقة الثامنة تسقط المرأة على الأرض. لا أحد يعرف ما الذي كانت تفعله هناك. أكانت تجمع أكياساً بلاستيكيةً لتبيعها؟ أكانت تحاول أن تموت؟ أم ربما فقدت عقلها؟ لا أحد يعرف اسمها. في الظلمة يستردّون جثمانها ثم يختفي أثرها.

"ما زلنا أحياء، لكن لمدّة كم من الوقت؟ نحن الموتى الأحياء مثل المخلوقات التي في الأفلام"؛ يقول أحد متطوّعي الدفاع المدنيّ أثناء مناوبته. "نعم أيها الموتى الأحياء! كيف تريدون قهوتكم؟". حلب الشرقية مدينة موتى أحياءٍ مهذّبين وصل بهم الإنهاك حدّ التعالي على اليأس.

يوم الاثنين كان زكريا، الذي يعيش وحيداً في منزلٍ عمره مئات السنين، يحتسي القهوة في الحديقة المنزلية. من عادة زكريا أن يعتني بالنباتات التي تحيط بالبئر الواقع في باحة المنزل، ومن عادته أيضاً زيارة صديقه يوحنا في الصباح وإحضار إبريقٍ من الماء البارد له. في التاسعة من صباح الثلاثاء يحتسي زكريا قهوته الصباحية من جديدٍ عندما يسمع أزيز قذيفة. يركض إلى غرفته آملاً أن يجد الأمان هناك، لكنه لم يحقق مبتغاه. لم تكن القذيفة كبيرةً لكنها أصابت زكريا ودمّرت نصف منزله ومنزل جارته سمر، الأرملة الثلاثينية التي مات زوجها قبل خمس سنوات "موتة ربّه" كما يقول الجيران، كما لو أنه من غير العاديّ أن يموت المرء موتاً طبيعياً. كان من الممكن لزكريا أن ينجو لو كان قد قفز إلى قبو المنزل كما فعل جاره. يعثر متطوّعو الدفاع المدنيّ بسرعةٍ على زكريا، لكن الوصول إلى جثمان سمر يستغرق ساعتين. يصل يوحنا ويخبره أحد الموجودين بما حصل. يهزّ يوحنا رأسه. لا صراخ، لا عينين شاخصتين، لا دهشة، لا شيء. مجرّد هزّة رأس. كان قد اشترى بعض الخبز وعاد إلى مأواه، وهو آخر دار رعايةٍ كاثوليكيٍّ للمسنّين في حلب الشرقية. "عليّ أن أكنس باحة الدار"؛ قال يوحنا وهو يمشي مبتعداً، ويضيف بأنه قد خمّن ما قد حدث. وقع الانفجار، بعدها لم يحضر زكريا مع الماء.

ما زال يوجد 7 مقيمين في دار الرعاية. الآخرون غادروا أو ماتوا. يوحنا، 75 عاماً، وماغي، البالغة ثمانين عاماً، هما الأصغر سنّاً بين نزلاء دار الرعاية. هؤلاء النزلاء الباقون كانوا يعتقدون قبل ذلك أن ما تبقى لهم من سنواتٍ ليعيشوها ستكون هادئة، وهم يفعلون ما بوسعهم للتعلق بهذا الأمل، لكن الأمر ليس سهلاً. فالمبنى على خطّ الجبهة مباشرة. "لا أحد في الواقع لديه شيء ضدّنا"؛ يقول يوسف شدياق، الذي درس اللاهوت لمدّة عامين فيما مضى. "لكن عندما صعدتُ إلى السطح في الشتاء لإصلاح خزّان الماء بدأ قنّاص النظام بإطلاق النار فوراً. صرختُ طالباً منه التوقف.

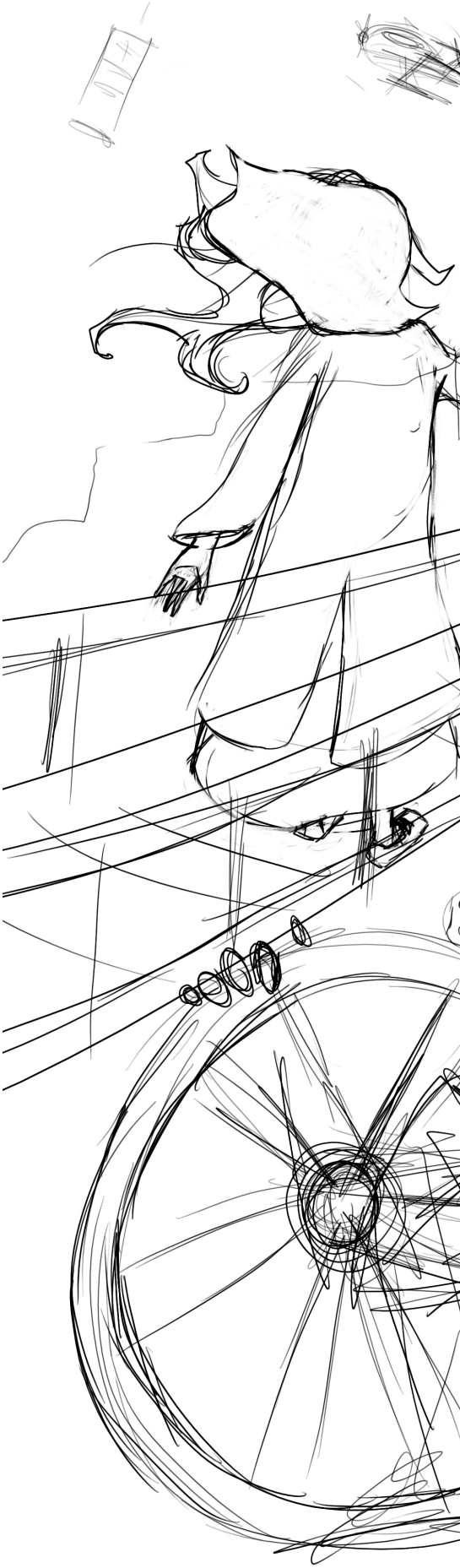

بعد ذلك تحسّنت الأمور بيننا. كان اسمه أبو جعفر. لكننا قلقون حالياً لأن أبو جعفر قُتِل ولا نعرف القنّاص الجديد". في الوقت الحاضر يجلس يوحنا ويوسف وماغي والاثنان الآخران اللذان ما زالا قادرين على المشي في الباحة النظيفة كلّ مساء وهم يستمعون إلى الهتافات التي يُطلقها كلا طرفي القتال. "الله أكبر"؛ يصرخ الثوّار. "بشار أكبر"؛ يردّ الجنود. أصبح المسنّون الخمسة بارعين في تمييز لهجات المقاتلين على الطرف الآخر. "حتى قبل شهر كنا نسمع على الدوام عراقيين هناك"؛ يقول يوحنا. "نعم، لكنهم رحلوا"؛ تقول ماغي. "واللبنانيون أيضاً"؛ يضيف جوزيف.

من المضلل القول إن القتال في حلب قد هدأ بعد سنتين. ومع ذلك فقد تراجع عدد المقاتلين على خطوط الجبهة. إلى ما قبل بضعة شهور كان ما يزال في صفّ النظام أكثر من ألف مقاتل عراقي، إضافةً إلى مقاتلين أشدّاء من "حزب الله"، ومرتزقة من أفغانستان؛ حلفٌ شيعيٌّ اختفى كلياً تقريباً منذ ذلك الوقت. وعلى الطرف الآخر أرسل الثوّار في شهر آب آلاف المقاتلين من حلب إلى الشمال ليوقفوا تقدّم مقاتلي "الدولة الإسلامية". لقد تجمّدت خطوط الجبهة ولم يعد أيٌّ من الطرفين يتحرّك، وهذا ما يسميه السكان المحليون "الجبهة الباردة".

لكلّ شخص تقريباً معارف أو أقرباء في الطرف الآخر. وتوجد شركات سفر في حيّ صلاح الدين تقدّم رحلاتٍ "من حلب إلى حلب". الرحلة، التي مسافتها بخطّ النظر 600 متر، تستغرق 12 ساعة. وفقط أولئك غير الموجودة أسماؤهم في قوائم المطلوبين من قبل أجهزة استخبارات الأسد يجرؤون على القيام بها.

في التاسعة من صباح الأربعاء ثمة انفجارٌ جعل الجدران تهتزّ. رياحٌ خفيفةٌ تحمل غيمة غبار عملاقة عبر السماء. في الشارع الفارغ تمشّي امرأةٌ بهدوء باتجاه الانفجار دون أن تبطئ من مشيتها حتى. بعد الانفجار بدقائق يمضي رجلٌ مغطىً بغبار أبيض ليجلب ماءً وهو يغنّي بهدوء، ويغسل درّاجته النارية التي سَلِمت بأعجوبة. "لقد سمعته"؛ يقول محسن، الكهربجي الذي انضمّ إلى الثوّار. في آخر لحظة قفز محسن إلى مدخل بناءٍ إسمنتيّ. لقد نجا. يمشي بعد ذلك إلى مكان الحطام، يحصي الجثث التي في الباحة المجاورة، ويقول بأسف: "3 قتلى".

حفارو أنفاق صابرون ومتقاعدون خَبَت فيهم جذوة الحياة في حلب الشرقية. مجموعتان متناقضتان جمعهما القدر معاً: أولئك الذين يعتقدون أنه ما زالت لديهم كلمةٌ في صنع أقدارهم مهما كان الثمن، وأولئك الذين يعتقدون أن الإنسان لا يد له في صنع قدره على الإطلاق.

رحمو حسين، 77 عاماً، آخر شخص بقي في شارعه. "اتركوني لوحدي مع كتبي"؛ يقول رحمو. مكتبته تملأ غرفةً كاملة، وهو يمضي أيامه بالقراءة وبالاعتناء بالمبنى. لكن أليس من الأسلم أن يهرب قبل أن ينفجر برميل؟ "كلا، لمَ عليَّ الفرار؟". لقد حصلت ضربةٌ هنا قبل 3 شهور أمام المبنى تماماً. هناك، عند المخبز. كان العشرات ينتظرون عندما ظهرت الهليكوبتر فوقهم. لم يكن رحمو ينتظر في الطابور ذلك اليوم. كان غارقاً في القراءة ولم يكن جائعاً. دمّر البرميل شرفة منزله وحفر فتحةً في جدار غرفة الجلوس، لكنه مُصرٌّ أن السبب في ذلك ليس الحظّ. "ببساطة، لم يحن أجلي بَعدُ".

في يوم الجمعة يتجمّع العمال المياومون من حيّ الحيدرية عند الدوّار، كما يفعلون كلّ صباح. إنه المكان الوحيد في الحيّ الذي يتجمّع الناس فيه. عدا ذلك فالشوارع فارغةٌ والمسجد خالٍ من المصلين، حتى في أيام الجمعة. في هذا الصباح كان 15 رجلاً ينتظرون، وبضعة سائقين جالسين في شاحناتهم الصغيرة. أحد الناجين سيقول لاحقاً إنهم لم يسمعوا أيّ شيءٍ قادم. أحد المقاتلين سيدمدم أنه لطالما حذّرهم من التجمع في نفس الوقت كلّ يوم. أحد الجرحى سيقول إنه كان دائماً خائفاً، لكن "عليَّ أن أُطعم أسرتي". في الثامنة وثلاث دقائق يدمّر برميلٌ 3 مبانٍ والشاحنات الصغيرة، ويمزق 11 رجلاً. عندما يصل "أصحاب الفزعة" إلى المكان يجدون أشلاءً على أسطح المباني المهدّمة. الضحية الثانية عشر يموت في المشفى.

الوحيد من الأشخاص الستة عشر الذي ما زال حياً في نهاية الأسبوع هو محسن، الكهربجي الذي كان يغنّي وهو يغسل درّاجته النارية.

حلب:
بين السيارات المفخّخة والبراميل المتفجّرة

محمد عثمان

أصدرت مجموعة الأزمات الدولية تقريرها الأخير هذا، لتسلّط الضوء على المصاعب التي يعانيها مقاتلو حلب، الواقعون بين ضغط نظام بشار الأسد من جهة، وتنظيم داعش من جهةٍ أخرى.

بعد استيلاء تحالفٍ من فصائل المعارضة المسلحة على نصف المدينة الشرقيّ، في تموز/ يوليو 2012، مثّلت حلب لوقتٍ ما رمزاً لتفاؤل المعارضة وللزخم الذي تتمتع به. أما في الشهور التالية، فإنها كشفت محدودية قدرات المعارضة المسلحة، التي تباطأ تقدمها، وتصارعت فيما بينها لكسب ودّ السكان المحليين. أما اليوم، ومع وقوعها في حربٍ على جبهتين ضدّ النظام وضد تنظيم الدولة الإسلامية، فإن وضعها بات أكثر حرجاً من أيّ وقتٍ سابقٍ منذ بداية القتال.

وبالنظر إلى المكاسب التي حققها النظام وتنظيم الدولة في أماكن أخرى، فإن مناطق حلب وريفها هي أهمّ ما تبقى لدى المعارضة المسلّحة على الأرض. وهكذا فإنها تمثل جائزةً كبرى، سواءً بالنسبة للنظام، الذي صعّد منذ أيلول/سبتمبر 2013 من محاولاته لإعادة الاستيلاء على المدينة، أم بالنسبة لتنظيم الدولة، التي قد تمثّل المدينة وما حولها بالنسبة إليه أفضل فرصةٍ للتوسّع. ثمة حاجةٌ للقيام بعملٍ عاجلٍ لمنع هزيمة المعارضة المعتدلة.

❖❖❖

في النصف الثاني من عام 2013، في حلب كما في سائر أنحاء الشمال، انطلق نقاشٌ حادٌّ بين مقاتلي ونشطاء المعارضة حول صعود تنظيم الدولة، والمقارنة بين مزايا التعاون التكتيكيّ وقصير الأمد معه مقابل التهديد بعيد المدى الذي تشكله شهيته للتوسع على حساب المجموعات الأخرى؟ أو بين سمعته القائمة على الانضباط والامتناع عن ارتكاب الجرائم الصغيرة، والإحباط من القسوة التي تميّز بها؟ استمرّ التململ أشهراً في شمال سورية حتى انفجر أخيراً في كانون الثاني/ يناير 2014، إذ كانت التوترات قد تصاعدت بشكلٍ خاصٍّ في المناطق التي تسيطر عليها المعارضة على الحدود التركية، حيث فرض التنظيم سيطرته على البلدات والطرق المؤدّية إلى المعابر الرئيسية، التي من شأنها أن تعود عليه بمكاسب ماديةٍ مجزية، وتهدّد بخنق خصومه.

كانت نتائج المرحلة الأولى من تلك الحرب، التي استمرّت ستة أسابيع، متفاوتة. فقد جرّدت فصائل المعارضة المسلحة تنظيم الدولة من المصداقية الثورية، وصنّفته كعدوٍّ بموازاة الأسد، وطردته من مناطق أساسية، إلا أن ذلك تحقق بكلفةٍ كبيرة. كما أن انتصارات التنظيم في الرقة وريف حلب الشرقيّ منحته، للمرّة الأولى، سيطرةً على منطقةٍ متصلةٍ جغرافياً صارت له فيها سلطة حكمٍ حصرية.

❖❖❖

بعد 11 شهراً من هجوم قوّات المعارضة، التي استولت على النصف الشرقيّ من مدينة حلب، شنّت قوات النظام حملةً لاستعادة المبادرة. بدأ الهجوم الجويّ على حلب في أواخر

ناجون من قصف في حلب | موقع الجزيرة الأمريكية

تشرين الثاني/ نوفمبر 2013، وتصاعد مع إرسال النظام وفده إلى مفاوضات جنيف2 في كانون الثاني/ يناير 2014. شكّلت البراميل المتفجرة، في حلب كما في غيرها، جزءاً رئيسياً من استراتيجية النظام لإحداث كارثةٍ إنسانيةٍ وإفراغ المناطق التي تسيطر عليها المعارضة من سكانها، كجزءٍ من عقيدةٍ تمحو الخطّ الفاصل بين التكتيكات العسكرية والعقاب الجماعيّ.

وحين نشبت المعركة بين قوّات المعارضة المسلّحة وتنظيم الدولة سارع النظام إلى استغلال القتال بين أعدائه. وحتى عندما كان وفده إلى جنيف2 يؤكد على الحرب ضد "الإرهاب"، فإن قوّاته على الأرض كانت تفعل شيئاً مختلفاً. فقد تجاهل تنظيمَ الدولة الإسلامية إلى حدٍّ بعيد، بينما صعّد حملته ضد المعارضة المسلحة. وكثف من هجماته الجوّية والبرية على المناطق التي كان تنظيم الدولة قد انسحب منها، بينما استثنى المعاقل التي استولى التنظيم عليها حديثاً في شرق البلاد.

ولا يعود ذلك إلى أن النظام وتنظيم الدولة حليفان، رغم أن تجنّب الطرفين المواجهة المباشرة في الأشهر الخمسة الأولى من عام 2014 أعطى البعض هذا الانطباع. ولكنهما في الواقع، ورغم الصدامات الأخيرة في شرق سوريا، يتشاطران بعض المصالح القصيرة ومتوسطة المدى.

❖❖❖

إن مزيجاً من انتصار النظام وتنظيم الدولة في حلب وحولها سيكون مدمّراً ليس فقط للمقاتلين المحليين، بل للمعارضة السورية برمّتها. سيتردّد صدى خسارة الأرض والمعنويات في سائر أنحاء البلاد، ما هو على المحكّ في حلب ليس انتصار النظام بل هزيمة المعارضة.

الوضع حرجٌ، لكن الأوان لم يفت بعد.

صورٌ من أرض الخلافة

أيّ حرج أصاب أبا الطيّب الأنصاريّ، في ذلك اليوم المشؤوم من عهده الجديد مع "الدولة الإسلامية"، حين كان ينطلق بسيارته على حماسة "دولتنا منصورة" بأعلى درجةٍ من مكبّر الصوت، وفي جيبه كتابٌ رسميٌّ من أمير قاطعه بتسهيل المهمة. فهو واحدٌ من أعضاء مكتب شؤون خدمات المسلمين، بل هو قلب هذا المكتب وطاقته الحركية الأهمّ، مقابل تردّد بقية الأعضاء وانخفاض همّتهم. وكما قال عنه أبو دجانة المصريّ، أمير القاطع، في اجتماع عام: "لو عندنا في الولاية عشرة مثل أخينا أبي الطيب لسبقنا كلّ ولايات الخلافة".

يحبّ أبو الطيب كلمة خلافة ومصطلح "الولاء والبراء"، الذي لم يفهمه بدقةٍ لكنه يتحايل في كلّ مرّةٍ ليجد فرصةً مناسبةً لوضعه في سياق جملة. غير أنه لا يبالغ في تكفير الناس كما يفعل غيره من الأنصار، رغم احترامه لمصطلح "الردّة"، وخاصّةً حين يطلقه الأمير على جماعةٍ ما من الجماعات. وبمنظور الردّة تحديداً، ثم العودة عنها، نظر أبو الطيب إلى بيوت القرية التي خفّف السرعة عندها، وشعر برغبةٍ لذيذةٍ ليتحدث مع أحدٍ ما من أهلها حول هذه النقطة بالتحديد. وبالتدقيق في وجوه الجالسين في مجموعاتٍ من سكان القرية أمام بيوتهم عثر على شخصٍ يعرفه. وخلال لحظاتٍ حضرت عناوين رئيسيةٌ للدخول إلى الموضوع الذي يريد: "قبل سيطرة الدولة كنتم مرتدّين، وأنتم اليوم مسلمون في دار إسلام". ربما كانت السعادة التي غمرته وهو يفكر في ذلك هي ما دفعه إلى الخطأ بالضغط على المكابح دفعةً واحدة، لأن سيارةً أخرى خلفه كادت تطير خارج الطريق بعد توقّفه المفاجئ.

إنه يومٌ مشؤومٌ بالفعل، فقد كان السائق مهاجراً تونسياً يعتقد أنه من الأمنيين، سمع أبو الطيب عن عصبيته لكنه لم يلتق به قبلاً، وها هو الآن يقع ضحيةً لها، بدءاً بالإهانات اللفظية وانتهاءً بعشر جلداتٍ ألهبت ظهره، ولم يخفّف من شدّتها كتاب تسهيل المهمّة من أمير القاطع.

❖❖❖

في سوق خضار في الرقة، كان إعلاميو "الدولة" يلتقطون صوراً لصناديق التفاح والبرتقال وربطات البصل الأخضر المغسولة والنعناع، ليحمّلوها على شبكة الإنترنت كإنجازٍ من إنجازات الخلافة. لم يحبّذ سكان الرقة، في أيّ يومٍ من الأيام بعد الثورة، التقاط الصور من أيّ نوعٍ ولأية جهة، فهي برأيهم تجلب طائرات بشار لتقصفهم كأهدافٍ لها، والآن تجذب طائرات التحالف لتقصفهم هي الأخرى. لكن، ما باليد حيلة، فهم لا يستطيعون اليوم قول "لا.. لا تصوّر!" كما قالوها سابقاً، وبصوتٍ حاسم، في وجه مصوّري الثورة. وكلّ ما يستطيعون فعله اليوم هو تجنّب النظر إلى العدسة أو الابتسام لها.

❖❖❖

في الحافلة الصغيرة، وفي آخر المسافات من أراضي "الدولة" باتجاه الحدود التركية، كان أبو علي يشعر بالغيظ. لأنه، وبعد سيطرة تنظيم الدولة على مدينته دير الزور، عجز عن ممارسة صراحته المفرطة. ولم يعد يستطيع، كما في السابق، أن يطبّق مبدأه العنيد بأن يقول "للأعور.. أعور بعينه".

مجلة عين المدينة | نصف شهرية سياسية متنوعة مستقلة
- لا تعبر المقالات المنشورة عن رأي المجلة بالضرورة.
- ترحب المجلة بمساهماتكم غير المنشورة سابقاً.
فيس بوك facebook.com/3aynAlmadina
تويتر twiter.com/3aynAlmadina
www.3ayn-almadina.com | info@3ayn-almadina.com